حول الموضوع فى الجغرافيا

أ.د. محمد رياض*

لكل علم فلسفة ومناهج بحثية لكن من المنطق أن يتغير ذلك بتغير عناصر مكوناته ومناهجه فيصبح له فلسفة مجددة. المثال المعاصر على التغيير – بطئ أو سريع – هو النظام الرأسمالى تعددت فلسفته واهدافه كثيرا خلال قرونه الثلاثة بحكم مكوناته المادية والتقنية والاستثمارية ونوعية العمالة وانتاجه ومتغيرات السوق واذواقه والمنافسة والمضاربات المالية فى بورصات وطنية وعالمية الخ. وكذلك تغيرت فلسفة الجغرافيا بسرعة تغير الأنظمة الاقتصادية السياسية انتجت متغيرات ايديولوجية اجتماعية مكانية أصعبها المدن متعددة ملايين الناس بما تحتويها من مقومات ايجابية واشكاليات سلبية ومبادآت اصلاح ... لكن التغيير اسرع.

صحيح أن المقومات الطبيعية فى فلسفة الجغرافيا تبدو كأنها ثابتة بينما هى تتغيربطئ لا يظهرالا بعد بضعة اجيال حين يتذكرالأحفاد ما كان أيام الأجداد مما يستدعى مفاهيم جديدة عن دور المكون الطبيعى والبشرى فى ازمان مختلفة. مثلا الأنهار فى الماضى ظواهر شبه ثابتة استخدمها الناس بمواصفاتها الطبيعية آلاف السنين وهى الآن غير زمان بعد أن كبّل انظمتها ٣١ الفا من السدود الكبيرة ومئات آلاف الأميال من الترع فاصبحت الفيضانات المدمرة والمجاعات المهلكة أمورا نادرة، لكن مقابلها ظهرت مخاطر اشكالية اجهاد التربة بزراعة دائمة. فما هى فلسفة النهر؟ كانت اصلا بيئة وفرة اقتصادية تحولت الى بيئة كثيفة السكن متعددة الأنشطة والوظائف. وما هو مآل بعض الأنهار مع التغير المناخى كعنصر طبيعى متغير عاود الأرض مرات عديدة سابقة؟

الانسان الحديث Homo sapiens sapiens الذى يعمر الأرض منذ قرابة ٥٠ الف سنة هو ابن أنظمة ايكولوجية مناخية توزعت على اقاليم مختلفة بعد التراجع المتذبذب لعصر الجليد الأخير وبداية حلول الأنظمة المعاصرة منذ نحو عشرة آلاف سنة. والراجح أن اقاليم الجفاف ستتعمق جفافا وأن نطاق التندرا الشمالية قد يتحول لأقاليم قابلة للسكن بعد ذوبان الصقيع الدائم 'Permafrost' فما هى فلسفة الجغرافيا ازاء هذه المتغيرات الشاملة المناخية حراريا وحجم المياه انهارا وامطارا؟

---

* الأستاذ بقسم الجغرافيا (متفرغ)، كلية الآداب – جامعة عين شمس.

جسم الانسان المعاصر يتشكل من نحو ٧٠% من المياه والسوائل (الدم ٩٠% المخ ٨٠% الكلى ٨٢% فإذا فقدنا ٥% من المجموع الكلى للمياه تبدأ مظاهر تدهورالجسم للإنسان الناضج ومظاهر الجفاف بين الأطفال وكبار السن). فإذا قلت الأمطار المدارية والموسمية هل يصبح القرن ٢١ قرن البحث عن الماء بضراوة لم تُعهد من قبل خاصة مع استمرار النمو السكانى على وتيرته (متوسط ١٥ سنة الأخيرة عالميا نحو١,٥% نمو سنوى للسكان). اهدرنا الأنهار ولوثناها ونهدر مخزون المياه الباطنية دون اعادة تغذية ونتجه بتكلفة عالية الى تحلية مياه البحر برغم تلويث البحار بكل مخلفات البشر والمخلفات الزيتية والجامدة ونفايات البلاستيك الكارثية، ومياه الصرف الزراعى المحملة بكل بقايا الكيميائيات، كلها تنخر فيما تبقى من "صحة البحار" وتساعد على مزيد من حمضية الأمطار. فماذا بعد؟ هل تسمح الدول بهجرة مجموعات بشرية كبيرة من آسيا وافريقيا الى شمال روسيا واسكندنافيا وكندا والسكا؟ هل هذه نظرة سوداء أم ضرورة لتقصى مستقبلا يحدث بطبيعته تدريجيا، لكنه يصبح أمرا فجائيا حال اهملنا افكارا جدية لتدبر الأمور. الآن تنمومظاهر عدائية فى أوربا وأمريكا ضد هجرة محدودة منظمة رسميا رغم الاحتياج للمهاجرين كقوة عمل متعددة التوجهات – فما بالنا إذا حدثت متغيرات طبيعية بنمط اسرع نتيجة تراكمات المتغيرات الوئيدة الحالية؟

الجغرافيا علم يتصف بدينامية الحراك لكنها ترد فى المصطلحات السياسية والخطابية الشعبية أنها علم حقائق استاتيكية ثابتة على مر القرون. ربما مصدر هذا التأكيد ناجم عن ثبات المكان داخل اطر توزيع اليابس والماء ومواقع الأقاليم منذ نحو عشرة الى خمسة آلاف سنة على هيئتها دون تغيير يحسه الجيل الواحد. إذا كان الأمر كذلك فالسؤال واجب الطرح : هل كانت جغرافية مصر قديما هى مواصفاتنا الجغرافية الحالية؟

واقعيا بالأدلة والاستقراء كان لدينا تغييردائم تدريجى غير محسوس بتغير المناخ الى الجفاف وتغير منسوب البحار فى تتابع وتذبذب نهايات عصر الجليد الأخيرخلال نصف المليون سنة الأخيرة. فمثلا قياسا على علاقات الأرض والبحرالحالية كان مجمل مواصفات الدلتا والوادى والصحراء فى مصر مختلفا بدرجات أثرت على توظيف الانسان للمكان؛ على الأغلب كانت الدلتا وشمال سيناء أكثر امتدادا الى الشمال على مروحتها القابعة حاليا تحت سطح البحر، وبالتالى لم تكن بحيرات الشمال فى مواقعها الحالية إذا كان ثمة بحيرات. إذن هل من المعقول أن يتخذ بعض فراعنة الدولة الحديثة عاصمة مصرية فى 'تانيس' المغمورة حاليا بمياه جوفية على حواف بحيرة المنزلة حتى لو كان الدافع لذلك انشاء قاعدة عسكرية قريبا من خط المواجهة ضد مخاطر غزوات تأتى من غرب آسيا ؟ كما لا نتصور ان يكون معمور الاسكندرية زمن تسيدها الثقافى فى العصر البطلمى الرومانى قد بنى فى قاع الميناء الشرقية الحالية ؟ وفى فترات زمنية امتدت الى نحو منتصف الألف الأولى ميلادية كان الساحل الشمالى أكثر مطرا مما كان يهيئ قاعدة انتاجية لمدن الساحل القديمة من الاسكندرية الى برقة.

وهل كان معمور الوادى كما هو الآن أم أضيق أو أوسع؟ وهل كان بحر يوسف فرعا يمتد من موازيا للنيل شمالا الى قرب بداية فرع رشيد الحالى مما سهل النقل المائى للأحجار الضخام فى بناء اهرامات الجيزة وسقارة؟ وهل كانت وديان الصحراء الشرقية ايكولوجيا اكثر تنوعا حياتيا مقارنة بالجدب الحالى مما سمح بالحركة تكرارا لتعدين الذهب والنحاس وانواع متميزة من الأحجار، فضلا عن كونها طرق الوادى الى موانى البحر الأحمر التى تقود الى منتجات بلاد الأنباط فى شمال الحجاز والسبأيين فى اليمن ومن ثم الى المياه المدارية على مشارف المحيط الهندى فى شرق افريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية الى بلاد بونت الأسطورية؟

فى معظم كتاباتنا الحديثة نحن أسرى مأثورة أن التركيب البيئى الحالى كان شديد القرب من التركيب فى زمن أقدم هو ما حبسنا فى اطاراستدلالات نسقطها من جغرافية وايكولوجية زماننا على انها كانت ذات المكونات الجغرافية منذ عشرة أو خمسة آلاف سنة مضت . علما أن اى متغير طفيف ما يلبث أن يتراكم ليحدث متغير ايكولوجى لا ينتبه له الناس فتتدهور الحياة الى نقيضها. مؤخرا استمرار البحوث الجيوأركيولوجية اكدت متغيرات مناخية محدودة وبيولوجية فى جغرافية مصر مثل دراسة اخشاب توابيت الأسرة الثالثة فى منف (سقاره) توضح ازمة جفاف محدودة فاصبح استيراد اخشاب لبنان والأناضول نمطا مستمرا فى علاقة تجارية مع شعوب وثقافات شرق المتوسط لبضعة آلاف السنين. ومثل ذلك فإن ايكولوجية نطاق سيناء الشمالى لم تكن تحكمها ذات الظروف الحالية على وجه الدقة، فلأنها كانت جسر للعلاقة التجارية والعسكرية الدائمة بين مصر وبلاد الشام الكبير فلا بد أنها كانت تتمتع بظروف ايكولوجية احسن وايسر سهلت حركة وهجرة الأعداد الصغيرة والتبادل التجارى ومسرحا لحروب شبه دائمة لوقف زحف جيوش معادية أو مجموعات قبلية كبيرة العدد. كما كانت طريق الحملات المصرية التى طاردت الهكسوس التى كانت بداية تأسيس نمط الملوك المحاربين فى الأسرتين ١٨-١٩ من رموزهم تحتمس الثالث ورمسيس الثانى. وبالمثل يختلف الباحثون حول طريق خروج اليهود بناء على تصورأن الظروف الحياتية فى سيناء الماضى هى ذاتها لسيناء الحالية. واخيرا اكتشاف مينائن من عصر بناة الأهرام فى منطقة العين السخنة ووادى الجرف (قرب زعفرانه) وميناء ثالث مقابلهما على بر سيناء عند "مرخا" (قليلا للجنوب من أبو زنيمة) هو من الأمور التى تؤكد طرق حركة دائمة من وسط سيناء وشمال خليج السويس الى "منف" العاصمة آنذاك !

وكما عرف المصريون طرق البحر الى بلاد "بونت" عرفوا ايضا طريق البر من اسوان الى بلاد "يام" ربما عبر الواحات الداخلة وأبو بلاص الى واحة الكفرة طريقا يدور حول جنوب بحر الرمال، ومن ثم الى تشاد – دارفور، أو مباشرة من أبو بلاص عبرالجلف الكبير الى تشاد أو دارفور. والى جانب ذلك لدينا الطريق الأساسى الملازم للنيل من اسوان الى كل بلاد النوبة فى مصر

وشمال السودان الحالى وهو الذى يطرح اسئلة أخرى حول دور الأودية الثلاثة 'مقدم' و'المِك' و 'هوار' التى تقود من نطاق ثنية نيل دنقلة الى مناطق التقاء النيلين أو كردفان أو إينيدى– دارفور على التوالى؟ ولا يفوتنا ايضا أن طريق النيل كان يقود من نباتا الى مروى عبر منطقة 'بايوضه'، وطريق نهر العطبرة الذى يقود الى ارتقاء الهضبة الحبشية الى 'أكسوم' العاصمة القديمة لمملكة الحبشة التى نشأت حول بداية التاريخ الميلادى فى شمال الهضبة. وهو ذات الطريق الذى عبرت عليه المسيحية المصرية الى الحبشة فى القرن ٣–٤ م. هذا بعض من كثير يؤكد أن تفسيرنا لنشاط المصريين قديما على ضؤ الظروف الحالية ليس دقيقا ويحتاج لترك فراغ تملؤه نتائج كشوف ومعارف احدث.

بدايات الجغرافيا

الموضوع الجغرافى بدأ غالبا مزدوج الغرض من عصور تكوين الحضارات العليا منذ ستة آلاف سنة أو حولها. الشق الأول انواع من التبادل التجارى – غالبا نظام المقايضة – بين منتج فائض فى المكان (أ) مقابل منتج مطلوب من المكان (ب) ربما يحدث فى مكان ما على تخوم أى من المكانين أو يتطلب أسفارا طويله برا أوبحرا بينهما. والشق الثانى الرحلة بين اماكن متعددة للتعرف على مجتمعات ذات فوائض انتاجية يمكن تبادلها أو تطويرها بما يتضمن التعرف على اللغات والتراكيب الثقافية والسياسية لتسهيل التبادل ربما تؤدى الى التفاعل الحضارى – بما يعنى الرحلة الى الناس الآخرين.

بعبارة أكثر ايجازا أن معارف 'علم وصف البلدان' (جيو–جرافيا) نشأت بغرض اقتصادى ادى الى تعارف ثقافى وتبادل عناصر حضارية بين المجتمعات. ما زال هذا الأساس البسيط هو الحاكم الأعلى فى جيو–سياسات واقتصاديات دول العالم للآن وللمستقبل، سواء كان ذلك باتفاق أنداد، أو بإرغام باشكاله بين الحرب والسلام بما يقتضيه من تغيرسياسة الاحتلال الفج الى سياسة تغيير البُنى الاقتصادية الاجتماعية وانظمة الحكم السياسية فى دول عديدة تفى بمصالح الدولة الأقوى تحت مفاهيم مشتركة المدلول والمصالح لكنها قابلة للتغيير زمكانيا مثل حالة القطن بين مصر وبريطانيا ، أو بظهورموارد أخرى أشد مطلبا وأقوى منافسة مثل بترول الخليج.

أما الرحلة فقد استمرت – عود على بدء – فى صورة السياحة الى اماكن وبيئات مغايرة تشمل أيضا رحلة الى الناس الآخرين ومضامين ثقافتهم واساليب حياتهم.

* * *

تأملات ومدخلات

فى الموضوع الجغرافى المعاصر لدى مجموعة من التأملات تشغلنى كما تشغل زملاء الجغرافيا مصريا وعربيا وعالميا ربما تقود الى لم شمل الفروع المتخصصة الحالية للجغرافيا فى صورة اكثر تكاملا – أو كما يقال 'جشتالتية Gestalt'– بمعنى صورة شاملة لجمع من معارف وعناصر لا يمكن فصل واحدة او تفضيلها كونها الأقوى تأثيرا. هى شئ ما شبيه بمفهوم شامل كالحضارة أو كصياغة عقد من معادن واحجار اذا فككت واحد منه لا يعود عقدا او إسوارا له ذات القيمة.

ولكى يصبح البحث عن صحة الأرض والناس ممكنا – ربما هو من أهم واجبات الجغرافيا واهدافها الآن بدلا من التوقف عند رصد الواقع الحالى – فالمستحسن رصد عدد من المدخلات على موضوع الجغرافيا داخل وخارج الأصول المنهجية تساعد على تشكيل المكون الفكرى الجغرافى فى صورة انظمة بين مُلزمات الانسان الحياتية وعناصر البيئة الطبيعية أكثر شمولية وتفاعلية متغيرة مع نتائج علوم اخرى كعلوم الأرض والبيولوجيا والطب والسوسيولوجيا والتاريخ والهندسة والاقتصاد والسياسة ... الخ. آن الأوان لإقامة مشروعات بحثية مشتركة تجمع الجغرافيين على اختلاف تخصصهم مع تخصصات مشتركة من خارج الجغرافيا لتفعيل مفاهيم شمولية لمشكلات مصرية (وشرق اوسطية) تواجه متغيرات اقتصادية مجتمعية سياسية خارج الأنماط المعتادة. أطرح هذه المهمة مع طلب عرضها للمناقشة على الزملاء كى نصبح جزء من الفاعلين للمجتمع. بعض من هذه التأملات فيما يلى بدون ترتيب وبعضها متداخل بطبيعتة فى صورة جشتالتية.

بعض موضوعات المدخلات

- **المكان الجغرافى** فى مشتمله يبدو كتكوين جامد على مئات ألاف السنين لكن قيمته تتغير على آلاف السنين – وفى بعض الأحوال على بضعة قرون – حسب مؤهلات الانسان والطريقة التى يقرأها لإمكانات وموارد المكان على ضوء معارفه التقنية فيصبح مهما أو تتلاشى اهميته فى مراحل زمنية متعاقبة. مثلا قرأ سكان الشرق الأوسط امكاناته من موارد المياه منذ نحو عشرة آلاف سنة فى ظل تغير المناخ الى الجفاف فأقاموا صرح الحضارات النهرية الأولى واصبحوا القوة السياسية فى عالم ذلك الزمان. وقرأ الرعاة الهندو– اوربيين فى وسط آسيا وفرة مياه السند وبالمثل قرأ الساميون فى الجزيرة العربية وفرة وغنى الاستقرار على أنهار الهلال الخصيب فتكالبوا عليها وتبادلوا حكمها، وكذلك قرأ البربر فى معظم ماهو الآن الصحراء الكبرى مياه النيل وشمال افريقيا. ونتيجة الاستغلال الجائر لتلك الوفرة تحولت من اقطاب جاذبة فى الماضى الى مراكز طاردة للسكان بعد ركود اقتصادياتها الزراعية مقابل ثروة جديدة قرأها آخرون من خارج الشرق الأوسط بمعارف حديثة.

باختصار ليس لأى مكان "عبقرية" فهو كتاب متاح يقرأه الناس بطرق وازمان مختلفة بما تؤهله لهم تقنيات علومهم واحتياجات اقتصادياتهم واسواقهم، فيصبح مرة مركزا مرموقا ومرات اخرى هامشيا ويبقى مما كان مجرد ذكرى تاريخية علما بأن التاريخ لا يتكرر حتى مع احلام "تخضير" الصحارى وقوة الماكينة المالية لأن الصحراء هى صحراء لا غير!!

* * *

■ منذ نحو ثلاثة قرون فقط كان الانسان بمراحله الحياتية الاقتصادية عند مشارف الثورة الصناعية يشغل نحو ١٢–١٥% من اكيومين سطح الأرض ، لكنه اليوم يشغل نحو ٥٥% منه. ليس معنى ذلك أنه لا يزال لدينا رصيد اكيومينى قابل للتعمير بسلاسة فالجزء المتبقى من السطح اصبح الآن ٢٠% والباقى (٢٥%) اغلبه غير صالح للاستخدام بدرجات تتناصفه الصحارى والقفار فى المداريات والصقيع الدائم فى القطبيات شمالا وجنوبا مع الغابات بانواعها المدارية والباردة والسطوح الجبلية وعرة الاستخدام تحتاج لتكيّف حضارى لأقل القليل من الناس.

■ **السكان** أحد المعارف الانسانية التى يكاد الا يوجد علم لا يشارك فيه بقدر؛ علوم بيولوجية عن الانسان كسلالات متعددة وايكولوجيات حياتية فى بيئات مسايرة ومعادية، وعلوم الصحة والطب عن الأمراض والعلل والدراسة الديموجرافيه من المولد الى الوفاة واعداده وفئاتها العمرية، وعلوم اجتماعية لانواع تجمعاته وتراكيبها السوشوسياسية بين مجتمعات شابة نشطة الانتاج واخرى ترتفع فيه نسبة الإعالة لأطفال كثر وإناث غير ناشطات. باختصار اطر حضارية ثقافية خُلُقية متناسبة مع طريقة حياة تُدبر الأعمال بتنظيم وتقنين أشكال التساند الاجتماعى ونوع النظام السياسى وتفاعله مع مجتمعات الغير سلما أو حربا، تحالف أو عداء ... الخ. جغرافية السكان تتشارك فى كل هذا بمنهجين متكاملين اولهما توزيعات السكان مكانيا ونموه العددى أو تدهوره على ضوء كل العناصرالديموجرافية، والثانى – وهو الأكثر تعقيدا والأقل ظهورا فى الدراسات – يبحث مسببات ومحفزات هذه التراكيب والتوزيعات من خلال تفاعل صحى بين الموارد الطبيعية والتكنولوجيا المحلية أوبالنقل الحضارى من الخارج وافكار التراتب الطبقى مع العدالة الاجتماعية.

■ المعتاد تقسيم السكان الى فئات عمرية لكل منها مواصفات من حيث الاعالة والعمل والبطالة والتأمينات الاجتماعية ومعاشات التقاعد الخ. الفئات المعتادة : الرضع ثم الأطفال وصغار السن حتى عمر بين ١٥–٢٠ سنة ثم القوة العاملة من ١٥–٢٠ سنة حتى ٦٠–٦٥ سنة واخيرا كبار السن + ٦٥ سنة. مشكلة السكان تكمن فى زيادة نسبة السكان تحت ١٥ سنة الى أكثر من المتوسط

العالمى العام البالغ نحو ٢٥% وهو ما يؤدى الى نمو سكانى عام مرتفع فوق المتوسط العالمى للفترة ١٩٩٠-٢٠١٥ البالغ ١,٣% سنويا، وبالتالى يسبب مشكلة إعالة عالية على فئة العاملين – اضافة الى اعالة فئة كبار السن بمتوسط عالمى ٨%. الاعالة فى الدول النامية تتركز حول صغار السن عكس الدول المتقدمة حيث الاعالة والتأمينات تذهب اكثر الى كبار السن وبطالة القوة العاملة التى انخفضت من ٧-٩% (بأزمة ٢٠٠٨) الى ٤-٦% عام ٢٠١٥ فى أمريكا ودول الاتحاد الأوربى.

■ منذ ايام قليلة تشر كاتب مرموق أن هيئة الصحة العالمية قد عدلت الفئات العمرية المعتادة بحيث يصبح من بين ١٦- ٦٥ سنة فئة شباب وبين ٦٦-٧٩ متوسط العمر وبين ٨٠-٩٠ كبار السن والمعمرين اكثر من ١٠٠ سنة. الأغلب أن ذلك التصنيف مرتبط بارتفاع العمر المتوقع للإنسان عما كان منذ نصف قرن. وحتى تُتشرتفصيلات أكثر دقة فإننا لا نرى فى التصنيف الجديد سوى تغيير مسمى العاملين الى شباب واضافة فئة متوسط العمر لاتحدث فروقا فى نسب الاعالة والتأمينات الاجتماعية. باختصارهذا التصنيف يتخذ الأوضاع الديموجرافية للدول المتقدمة مقياسا، ولو كان القياس على احوال سكان الدول النامية لأصبح الشباب بين ١٥-٣٥ سنة ومتوسط العمر ٣٥-٥٠ والشيوخ ٥٠-٧٠ والمعمر +٧٠ سنة. الخلاصة أن أى قياس تصنيفى يحسن أن يعكس نوع المجتمع وعلاقاته المكانية، ما يؤكد أن مناهج العلوم ليست أطرا جامدة بل تتغير بتغير المجتمع.

■ نمو عدد **سكان العالم** المستمر يزيد سرعة تناقص الإيكومين القابل للتعمير. كان عدد سكان العالم حوالى مليارا واحد فى بداية القرن ١٩ زاد بسرعة الى سبعة مليارات فى القرن ٢١. والأكثر تأثيرا أن توزيع سكان العالم كان اكثر اعتدالا على وجه الأرض بين المراعى والحقول الزراعية والمدن، لكنه منذ نصف القرن ٢٠ يتجه دون رادع الى تجمع وتركيز غير صحى فى مساحة محدودة لمدن كانت تستوعب ١٠% من سكان العالم ارتفعت الآن بحدة الى ما بين ٤٠-٥٠% من المجموع. اسقاطات النمو السكانى العالم تشير الى استمرار النمو العددى الى ٨,٤ مليار عام ٢٠٣٠ والى ٩,٥ مليارا عام ٢٠٥٠. أى أن السكان بين ٢٠١٠-٢٠٣٠ يزيدون بنسبة اقل قليلا من ٢% سنويا ثم تهبط بعد ذلك الى ١,٣% أو أقل علما بأن المتوسط العالمى للنمو لفترة ١٥ سنة (١٩٩٠-٢٠١٥) هو ١,٣%. كما أن النمو العالمى غير متساو بين القارات، فإذا أخذنا سكان ٢٠١٠ كسنة أساس ١٠٠ لكل قارة سوف تتصدرافريقيا النمو بنسبة ١٥٨% لعام ٢٠٣٠ تهبط الى ١٤٦% فى ٢٠٥٠، تليها امريكا الجنوبية بنسب ١٢٠ ثم ١٠٨، وامريكا الشمالية ١١٤ ثم ١١٢ على التوالى، مقابل انخفاض آسيا الى ١١٧ الى

١٠٥ بينما يتناقص نمو سكان اوربا الى ٨٦ % عامى ٢٠٣٠-٢٠٥٠ عما كان عليه عام ٢٠١٠. بعبارة أخرى أن هناك أمل فى أن يبدأ هبوط بطىء لنسبة النمو بعد ٢٠٣٠، وربما يتسارع الهبوط فيما بعد لكونه يصبح نمطا يمارسه الناس كما فعلوا فترة التناسل الكبيربعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. لكن فى خلال نصف القرن القادم هل تحدث كوارث يسببها تغير المناخ على الأرض والبحر والتيارات البحرية ... أو تسببها عنصريات الرجل الأبيض التى نشهد مظاهرها بين حين وآخر فى أوربا وأمريكا؟

■ نمو **المدن** اصبح شكل من أعقد المشكلات الحياتية فى العالم تُركز السكان بصورة لم تحدث من قبل فى مساحة المدينة المحدودة تضم داخلها المهمشين العشوائيين جنبا لجنب الموسرون والأغنياء وبينهما متوسطوا الدخل (يهبطون دوما للفقر) والكل يتزاحم فى المدن على استهلاك ابتكارات لا نهائية من الخدمات والأعمال والبطالة والعجز والجريمة، وهى بذلك مسبب الحراك السياسى للتغييرالمجتمعى الى حد الثورات بانواعها التى تنسكب منها تدريجيا الى الريف فيما بعد.

■ المدينة هى المسبب الأول فى إضاعة الوقت بسبب ازدحام قد لا تحله تعدد شبكات النقل العام والخاص. وربما لهذا نرى فى بعض بلاد اوربية زيادة الاستثمار فى صناعة واستخدام الدراجة الهوائية لحل اشكالات الانتقال فى المدن مع العودة للترام السطحى بديل استخدام السيارة لتقليل انبعاثات الغازات الضارة. لكن التصورالنهائى لحل اشكالية المتروبوليس المليونية قد يكون مزدوجا: إما تقليل وفصل بعض وظائف المدينة كمركز كثيف إدارى – خدمى – انتاجى وإعادة توزيعه بعدالة على مناطق محرومة، وإما فصل ادارة 'الميجابوليس' الى عدة اقسام كأنها مدن اصغر حجما سكانا ومساحة ووظائف كى تقنن لكل قسم لوائح وتشريعات ميسرة مستجيبة لمحاور طرقها وابنيتها ومجتمعها ووظائفها معا. هذا أو ذاك من مشكلات المدن يجب أن يتزامن مع مبدأ إنشاء مدن جديدة لا تزيد عن مائة الف من السكان حتى يمكن ادارتها على وجه جيد، وقد تنمو بسرعة لظرف طارء ثم تعاود النمو البطىء فيما بعد. قد تكون هذه الأفكار حلولا جزئية ولكن المشكلة تحتاج اجراءات شمولية تنطوى على الأغلب إحداث تغيرات فى اسس الأنشطة الاقتصادية شديدة التمركزحول الرأسمالية المالية الحالية بتفريعاته المتعددة – بمعنى متغير اجتماعى اقتصادى سياسى فى آن واحد.

■ ربما بداية ذلك ظهور صورة "المدينة المنكمشة shrinking cities" خلال العقود الثلاثة الماضية التى تأخذ تدريجيا فى التواجد فى مناطق كثافة سكانية عالية مثل المانيا. يترتب على انسحاب الناس من المدن الكبيرة ظاهرة الشقق والمحال المغلقة وركود بعض الأسواق لتناقص البنية الاقتصادية لبعض المدن، مثلا فى مدينة ليبزيج فى المانيا ٦٠ ألف مسكن فارغة هى نحو ٢٠%

من مجموع مساكن المدينة. ومثل ذلك نجد ظاهرة المساكن المغلقة فى بلاد نامية كمصر لكنها نتيجة لقلة الاستثمار العقارى وارتفاع ثمن الأرض مما يحدوا القادرين على شراء مساكن لأبنائهم عند الزواج.

■ ومع ذلك فنمط المدن العملاقة "ميجاسيتى megacity" لا يزال قائما فى بلاد ضيقة المساحة أو أن ايكولوجية العمران ملتزمة بمساحات محدودة مثل اليابان وحالة اكيومين مصر المرتكزعلى النيل أو حالة البلاد البترولية حيث تَجرف مدينة الادارة والسياسية السكان الى ما توفره المدنية من احتياجات حياتية فيما كنا نسميه عمران البترول petro-urbanism منذ ٣٠-٤٠ سنة لكنها صارت الان ممارسة اعتيادية فى اجتذاب مزيد الناس والتضخم المساحى للعواصم والمدن الأخرى معا. الآن نشهد انفجارمدن مليونية فى شرق آسيا حيث تضم الصين وحدها ٢٦ مدينة مليونية أكبرها شنغهاى ٢٤ مليونا واصغرها زونجشان نحو ٤ ملايين. وفى الهند ٢٣ مدينة مليونية واندونيسيا ١١ واليابان ١٢ منها طوكيو وضواحيها ٣٨ مليونا هى أكبر ميجاسيتى عالميا الآن. معظم العواصم مدنا مليونية فيما عدا الدول كبيرة المساحة التى تضم عدة مدن (الولايات المتحدة وروسيا لكل ١١ مدينة).

* * *

■ **اجمالى الناتج المحلى** عالميا نمى من رقم صغير الى نحو ٧٥ بليون $ (= تريليون فى النظام الرقمى الامريكى، وسواء بليون أو تريليون فهما يشملان ١٢ صفر).

* * *

■ **استهلاك الطاقة** من مصادرها الرئيسة ارتفع من ٢٠ الى ٣٩٩ اكسجول Exajoule (= من **٥,٥** الى **١١١** مليار ميجاوات/ساعة). ففى ١٠ سنوات ٢٠٠٦-٢٠١٦ زاد استهلاك الطاقة ١٢٠% من ١١,٢٦ الى ١٣,٢٨ مليار طن زيت مكافئ، فإلى أى مدى نسير؟ استخدامنا الحالى للموارد يزداد بقدرالتقدم التقنى لأدوات الانتاج السلعى زراعى صناعى لا بد أن يصاحبه نمو متسارع فى الطاقة. حاليا انتاج ٩٠% من الكهرباء من مصادر حفرية (بترول ٣١% فحم ٢٨,٦% غاز ٢١,٢% نووى ١٠,٦%) الى جانب ١٠% من االطاقة المتجددة : هيدرولوجية ٦% وقود حيوى Biofuel وبدايات طاقة الرياح والشمس وجيوثرمال [= طاقات حارة من باطن الأرض].

■ فى ٢٠١٥ كان التوزيع المكانى لاستهلاك الطاقة من كل مصادرها على النحو الآتى: ٤١,٨% آسيا – ٢١,٦% اوربا بما فيها روسيا – ٢١,٣ % امريكا الشمالية – ٦,٧% الشرق الأوسط – ٥,٣% امريكا اللاتينية – ٣,٣% افريقيا. تتصدر الصين استهلاك الطاقة عالميا بنسبة ٢٢,٩% تليها الولايات المتحدة ١٧,٣% ثم الاتحاد الأوربى ١٢,٤% والهند ٥,٣% وروسيا ٥,١ واليابان ٣,٤. هذا التوزيع يوضح كيف يؤشر نمو استهلاك الطاقة على نجاح تطبيقات التنمية فى بلاد نامية كالصين والهند – برغم اختلافهما فى التركيب السياسى الأجتماعى – بينما هناك ثبات نسبى فى استهلاك الطاقة فى البلاد المتقدمة صناعيا كأنها استوفت أو قاربت بنيتها الاقتصادية الاجتماعية الحد الأعلى للنمو.

■ الآن ٩٠% من المنشآت الجديدة لانتاج الطاقة فى الاتحاد الأوربى تدور حول الطاقة المتجددة بغرض الوصول الى أن تصبح ٢٠% من كل الطاقات المنتجة فى عام ٢٠٢٠. لكن هذه النسبة تختلف بين دول الاتحاد؛ السويد هى الأعلى بنسبة ٥٤% من مجموع الكهرباء المنتجة هى من الطاقة المتجددة (أنهار + شمسية موسميا) تليها فنلندا ٣٩%، وتأتى بلجيكا وهولندا ولكسمبورج فى آخرالترتيب بأقل قليلا من ١٠% طاقة متجددة. لكل دولة أوربية مجال تركز فيه على نوع سائد من القوى الطبيعية التى يمكن استخدامها كطاقة متجددة: السويد وفنلندا تتجه للطاقة الشمسية (فوتوفولتايك) لتعويض نقص الرياح، بينما فى ايطاليا تتفوق الطاقة الشمسية بحيث اصبحت تشكل ٩% من كل انتاج الطاقة وترتكز المانيا على طاقة الرياح والشمس معا بحيث اصبحتا أكبر من انتاج محطاتها النووية التى هى آخذة فى النقصان لسياسة تلتزم بها. الخلاصة أن سياسات الطاقة المتجددة فى دول جنوب أوربا تدور أكثر على الطاقة الشمسية بينما فى شمال أوربا طاقة الرياح والأنهار. وترى بعض التقارير المتخصصة أن الاتحاد الأوربى بمجمله قد يصل الى نحو ١٦% من الطاقة المتجددة عام ٢٠٢٠. العقبة الكبرى ما زالت متعلقة بالسيارات التى تنتج قدرا كبيرا من الطاقة الملوثة، والأمل مرتبط بفك هذا الارتباط بانتاج وتحسين السيارة الكهربائية.

تمثل المانيا نموذج للتوجه شبه التعادل بين مصادر الطاقة الحفرية والمتجددة كالنسب المئوية التالية:

الطاقة الحفرية: فحم ٢٣,١ فحم حجرى ١٧,٢ نووى ١٣,٢غاز أرضى ١٢,٤٥ = ٦٥,١%
طاقة متجددة: الرياح ١١,٩ بيولوجية ٧ شمسية ٥,٩ هيدرولوجية ٣,٢ قمامة ٠,٩ = ٢٥,٩%
مصادر اخرى وزيوت معدنية: ٥,٣%

نمو الطاقة المتجددة فى الآونة الحالية أمر مبشر حسب ما نستخلصة من الجدول الآتى:

الطاقة المتجددة % من جملة مصادر الطاقة فى القارات

القارة والاقليم	٢٠٠٥	٢٠١٦
فريقيا	٠,٥	٢,٩
آسيا	١,٣	٥,٨
أمريكا الشمالية	٢,٣	٨,٠
امريكا اللاتينية	٢,٥	٩,٥
أوربا	٣,٠	١١,٩
الشرق الأوسط	٠,٠	٠,٢٥
العالم	**٢,١**	**٧,٤**

ملاحظة: الشرق الأوسط باعتباره أكبر منتج بترول وغاز فهو لا يزال على استخدامهما لتوليد الطاقة رغم امكانته الهائلة فى الطاقة الشمسية.

* * *

■ وصول **استخدام الموارد** الى حدوده القصوى maximum يؤدى الى الانزلاق الى مخاطر انهيار جسيمة بعد تصفية كل ما يمكن استخدامه من تربة أو مياه جارية أو جوفية أو مصادرانتاج الطاقة الحفرية. هل يجيء الاستهلاك الاقصى حلا وحيدا لمشكلة معقدة كالفقر، أم هو جزء من كل ؟ فيما بين ٢٠٠٩– ٢٠١٤ ارقام تشير الى ما يشبه ثبات النمو فى قيمة اجمالى الناتج المحلى فى دول كبرى متقدمة بمعنى نمو قليل الى الثبات او نمو سلبى كما يوضحه الجدول التالى :

دول زيادة نموالناتج المحلى	% زيادة نمو الناتج	دول شبه ثبات نمو الناتج المحلى	% زيادة أو نقص النمو
الصين	٢٠٧	اليابان	١١١
البرازيل	١٥٤	المانيا	١٠٧
روسيا	١٤٦	بريطانيا	١٠٥
الهند	١٤٥	فرنسا	١٠٠
الولايات المتحدة	١١٩	ايطاليا	٩٤

فهل المعنى أن دول النمو شبه الثبات قد بلغت حدودها القصوى اقتصاديا قد تثير متاعب مجتمعية فى مستقبل ليس بعيد؟

■ **المياه العذبة** تشكل حجما ضئيلا بالقياس الى حجم ومساحة الغلاف المائى على كرتنا الأرضية. يقسم الاخصائيون المياه العذبة الى ُخضراء' هى مياه الأمطار ومياه ُزرقاء' هى المياه الجارية فى الأنهار، ومن كلتاهما تنساب المياه الى باطن الأرض كمخزون مستخدم من القدم فى صورة الآبار السطحية لايزيد عمقها عن ٢٠-٣٠ مترا لكننا ندق اليوم آبارا الى اعماق عدة مئات من الأمتار.

■ زيادة **استهلاك المياه** من ٥٠٠ كم^{٣} عام١٩٠٠ الى ٣٩٠٠ كم^{٣} الآن (١ كم^{٣} = مليار متر^{٣}) تتناقض مع وصولنا الى الفقر المائى وربما احتمالية نزاعات وحروب المياه كمشكلة عالمية وشيكة الحدوث. المياه الجوفية الآن هى مصدر مياه نصف سكان العالم و٤٣% من مياه الرى عالميا. تسارع الحاجة الشاملة عالميا للمياه عام ٢٠٥٠ يقدر بزيادة ٥٥% عن اللاستهلاك الحالى اغلبه راجع لنمو متسارع فى استهلاك الصناعة ٤٠٠% والاستهلاك البشرى +١٣٠% وارتفاع الإنفاق على تنقية المياه من كافة الملوثات يؤدى الى تحميل عالى لموازنات الصحة الوقائية ...الخ. كل ذلك مواقف مثيرة لاشكالات مادية مجتمعية مالية قد تعصف بالأنماط العالمية الحالية بمتغيرات غير معروفة بدقة !

■ العالم بسبيل هدر الطاقة الهيدرولوجية بعد أن كبَّلنا الأنهار ب ٣١ ألفا من السدود الكبيرة ومئات آلاف السدود الصغيرة وقناطر الموازنة ومجار فرعية صنع الانسان (ترع للرى أو انشاء قنوات موازية لأجزاء صعبة الملاحة من الأنهار تسمى احيانا 'تقنية' - اشتقاق من قناة - وربما اقدم نموذج لها ما صنعه الفراعنة فى بعض اجزاء الشلال الثانى من النيل). وعلى أى الحالات فإن تغييرالموازين البيئية كان ناجحا من اجل مكسب محدود لرى حقول أو انتاج طاقة، لكننا بيئيا عرضنا الأنظمة النهرية لمخاطر قد لا يمكن مواجهتها خاصة مع تغير المناخ ... فماذا يتبقى؟

■ لدينا انهاك للتربة ومشكلات الصرف الزراعى مع ثبات منسوب المياه فى النهر دون انخفاضه الموسمى هو واحد من سلبيات السد العالى؟ الان استزراع مساحات كبيرة فى الصحارى على المياه الجوفية سوف يصل الى حده الأعلى ومن ثم فقدان جانب كبير من خزان المياه الجوفى.

■ زيادة استخدام المخصبات المعدنية من نحو صفر الى ١٧١ مليون طن الآن كحل لاجهاد التربة لكنه مستمر كل موسم زراعى ما يعنى أيضا تلوث كيمائى لمياه الرى والصرف ينعكس على الانسان بظهور امراض لم تكن موجودة من قبل. فى العقد الحالى رُصدت وفيات كثيرة وبخاصة فى افريقيا نتيجة تلوث مياه الشرب اعلاها ١ (واحد فى الألف) من مجموع سكان الكنغو والسودان الجنوبى وافريقيا الوسطى وتشاد ومالى. قد تبدوالنسبة ضئيلة لكن الرقم الفعلى كبير. مثلا لو قسنا الحالة فى الكنغو حيث عدد السكان نحو ٨٠ مليونا ما يعنى وفاة ٨٠ الفا سنويا بسبب مياه ملوثة !

■ الفوسفات خامة فيها من المنافع قدر المضار. منتجاته واسعة الانتشار كسماد فى كل الحقول يرفع خصوبة التربة، لكن جانبا كبيرا منه يتسرب تحت التربة بعد الرى فيتداخل مع النظام الهيدرولوجى للانهار وقنوات الرى وفى النهاية يصيب البحار والمحيطات بالتلوث. مؤخرا مات نحو ٨٠ من الحيتان عند مصب نهر سانت لورنس فى المحيط الأطلنطى. التلوث فى حوض هذا النهر المشترك بين كندا والولايات المتحدة هو مخلفات الأسمدة فى مساحات زراعية ضخمة يزيدها مخاطرا المنطقة الصناعية الكبرى حول البحيرات العظمى فى ذلك الحوض. اغلب انهار العالم – وبوجه خاص العالم المتقدم فى الشمال – تتسبب فى تلويث البحار فضلا عن عشرات آلاف ناقلات البترول وسفن الصب السائل والجاف تبحر فى كل نواحى العالم.

■ الفوسفات خامة ربما تضمحل مصادرها الأساسية، أو يقل استخدامها باتباع المزيد من الزراعة البيولوجية التى ترفض استخدام المخصبات الكيميائية. ظهرت اقتراحات وبعض الممارسات فى استخلاص الفوسفات من المصارف الزراعية واعادة تدويره واستخدامه مرة ثانية فى الحقول. بعض التجارب فى النمسا تفيد باستخلاص قدر يساوى ٣٠–٤٠% من احتياج العادى للأرض من الفوسفات!

ومن بين الأفكار المطروحة استخدام الفضلات البشرية (البراز دون البول) فى تخصيب الأرض بيولوجيا. هذه افكار مستمدة من واقع الزراعة فى كل الأزمنة السابقة حتى قرنين أو نحو ذلك – حين كان قضاء الحاجة فى الخلاء امرا عاديا للفلاحين . إضافة الى أن الماشية تترك فضلاتها فى الحقول وكذلك فى الهند نحو نصف الفلاحين يستخدمون الخلاء، وكلها كانت بالتجريب مثارا لانتاج نباتى وفير دون الحاجة للأسمدة الكيماوية.

■ تصنيع المنتجات النباتية هو من كبار مستهلكى المياه كما يتضح من الجدول التالى:

متوسط استهلاك المياه لزراعة وتصنيع بعض الأغذية محسوبة باللترمياه لكيولوجرام السلعة

السلعة	لتر مياه	السلعة	لتر مياه
شيكولاته (كيلوجرام)	١٧١٩٦	أرز (كيلوجرام)	٢٤٩٧
جلود بقر (كيلوجرام)	١٧٠٩٣	شعرية (كيلوجرام)	١٨٤٩
لحم بقرى (كيلوجرام)	١٥٤١٥	بن (كيلوجرام)	١٠٥٦
قماش قطن (كيلوجرام)	٩٩٨٠	لبن (كيلوجرام)	١٠٢٠
لحم خنزير (كيلوجرام)	٥٩٨٨	سكر بنجر (كيلوجرام)	٩٢٠
جبن (كيلوجرام)	٣١٧٨	تفاح (كيلوجرام)	٨٢٢
ذرة (كيلوجرام)	٢٨٥٤	طماطم (كيلوجرام)	٢١٤
		شاى (كيلوجرام)	١٠٨

■ نضيف الى ذلك زيادة استهلاك المياه فى الدول النامية نتيجة نوعية الحياة الأحسن، وفى بعض الدراسات أن سكان تلك الدول تستلك من الغذاء بأنواعه ضعف ما كان استهلاكهم عام ١٩٦٠. ومن الممكن أن نخصص أكثر فقد اضيف اغذية كانت نادرة ضمن مائدة الفقراء مثل اللحوم بحيث ارتفع استهلاكها بأكثر من الضعفين أو يزيد.

■ الخلاصة أن كل هذن العوامل قد أصبحت تشكل عبأ على استهلاك المياه أو كما يسمي حديثا "ضغط القدم water footprint "الذى يقدر الآن باستهلاك فرد بين ١٥٠٠ –١٠٠٠٠ لتر يوميا حسب المنسوب الاجتماعى والاقتصادى للمجتمعات !

الا نبحث عن طرق ووسائل تؤدى الى استخدم كفؤ للمياه دون اسراف كما نفعل فى المحميات للإبقاء على انواع حياة مهددة بالانقراض !!

* * *

■ **السؤال الحائر** الآن: هل العلاقة بين الموارد والناس سيطرة أم شراكة ؟

للأسف اصبحت السيطرة نموذج اعتيادى متكررعلى صلف وغطرسة استخدام التقنيات الجديدة كدليل القدرة والكفائة، لكنها وقتية النجاح تجئ بعدها سلبيات نحاول حلها بتقتيات جديدة فى دائرة حلزونية متصاعدة ! لدينا فى كثير من الدول النامية، ومصر من بينها ، مشكلات متعددة على رأسها الجوع والفقروالبطالة والأمية ومشكلات الحداثة ومحاولات الهجرة بأنواعها واللجوء السياسى وكلها عناصر متشابكة اصولها الضغط السكانى مع استمرارية ثقافة الانجاب التقليدية وندرة وفشل التأهيل المهنى لوجود تيارتعليمى احادى جامعى مرغوب هدفه الصعود الاجتماعى، لكنه كقشة الغريق يقود لطريق

بطالة الجامعيين. الأهم هيمنة القلة الحاكمة (مباشرة أو بواسطة وكلاء) فى السيطرة الاقتصادية التى تنحو عالميا لمزيد الدعم للمصالح الخاصة مع تقليل حرية الرأى باجهزة ذات شكل ممقرط يقوم بدور المحلل لكافة التشريعات . الخلاصة أن فى مثل هذه المجتمعات يتدبر الناس حياتهم بصورة أو اخرى دون تدبرالمشكلة الأكبر: **ماذا عن مستقبل الجيل القادم ؟؟**

ربما السبب تشابك المشكلات فيما بينها بطرق معقدة قد لا يمكن تصنيفها الى اولويات مثل السلم والأمن – الاستقرار– الأمية – التأهيل المهنى – البطالة – الرأى والآخر الخ. أيها له الأولوية؟ هل فى احد الأساليب الآتية تكمن المساعدة على حلها :

١- هل يمكن معالجتها بصيغة مشتركة تتكون من تحسين الدخول والحد من حلزون ارتفاع اسعار وتكلفة الحياة وتطوير اساليب مكافحة الجوع والفقر والصحة الوقائية ؟

٢- حماية الموارد والانشطة من التدهور والانهيار مع عدالة فى حقوق الانسان الاجتماعية وحرية التعبير واختلاف الرأى؟

٣- الآن ظاهرة الاعلان عن بيع أو تأجير بعض أراضى الدول الافريقية كوسيلة لحل اشكالات متجذرة فى كل الاتجاهات والأعماق ؟ مثلا الكنغو تعلن عن بيع أو تأجير بعقود طويلة الأجل ٢٠ مليون فدان والسودان ١٢ واثيوبيا خمسة ملايين فدان، وتكالب مشترين على رأسهم الصين وكوريا وماليزيا ودول الخليج النفطية. ومثل ذلك فى امريكا الوسطى والجنوبية واكبر المحركين والمشترين الولايات المتحدة وبريطانيا تنافسها الصين واليابان وكوريا. باختصار التفسير الظاهرى هو تأمين أراض زراعية لدول غنية تعانى ازمة انتاج غذائية، والتفسيرالباطنى سعى رأسمال اجنبى وراء مجالات استثمار أكثر ربحية بعمالة رخيصة يقدمها اصحاب الأرض مقابل حفنة دولارات وبعض مظهرية الرفاه لوكلاء محليين لحساب الأجنبى !

- ربما يكمن جانب آخر من التفسير متداخل فى مخلفات تاريخ الاستنزاف الاستعمارى لأفريقيا حتى ١٩٦٠ والى مبدأ مونرو (١٨٢٣) الذى اعتبر امريكا اللاتينية باجمال 'الحوش الخلفى' حكرا للولايات المتحدة التى ساعدت على استقلالها عن المستعمرين الأوربيين لكنها وقعت فى براثن الاحتكار الأمريكى الرأسمالى وحدة. وأيا كان هذا أو ذاك فإن اقتصاديات المستعمرات الأوربية السابقة أو مناطق النفوذ الرأسمالية الأمريكية قد تغيرت الى انتاج خامات تسويقها شديد الإرتباط بالمُستعمر والمُستثمر الغربىالأصلى. أما الإدعاء الغربى بالرغبة فى تحسين اوضاع الحكم القبلية الى ديموقراطية فقد نجحت شكلا لكنها عمليا زادت الفرقة بتثبيت زعامات محلية موالية تقوم شكلا بالحكم الداخلى من خلال ما عرف باسم 'نظام الحكم الادارى المزدوج' للمستعمرات. بمعنى ترك مشكلات المجتمع لادارة الأسر الحاكمة الخاضعة لهم بالصورة التى تجعل مصالح بقائهم وثيق الصلة ببقاء المصلحة الكبرى للمُستعمر مع هامش

فوائض للحاكم الادارى المرغوب. نجحت الادارة المزدوجة طوال زمن امبراطوريات الاستعمار ولكن بذور الديمقراطية تشكل الآن هموم الدول الجديدة بين المصالح الاحتكارية ومطالب الشعوب. سقوط انظمة 'الفساد' الحالية غالبا بالضغوط السلمية تنتهى لمراعاة جزئية لشعار الديمقراطية دون توطئة لممارستها فعليا. **الخلاصة:** لا يوجد حل سحرى صالح للجميع فالدول والاقاليم الجغرافية تختلف فى مقوماتها ومقدراتها الطبيعية والبشرية والتاريخية مما يستوجب **معالجات مختلفة اكثر ارتباطا بالمقومات واكثر تفاعلا مع المقدرات.**

■ عدم العدالة ليس فقط بين طبقات المجتمع لكنه تتنامى حجما وقيمة بين الدول كما نستنتجه من قرأة موضوعية للجدول الآتى:

نوع الدول	السكان بالمليون	% من سكان العالم	اجمالى الناتج بمليار دولار	%من الناتج العالمى	نصيب الفرد $	%من نصيب الفرد بالدول المتقدمة
المدقعة	٦٢٢	٨,٥	٣٩٢	٠,٥	٦٢٨	١,٦
الفقيرة	٢٨٧٨	٣٩,٦	٥٧٥٣	٧,٣	٢٠١٨	٥,٦
المتوسطة	٢٣٦١	٣٢,٥	١٨٨٢٢	٢٤,٠	٧٩٢٦	٢٠,٧
المتقدمة	١٣٩٨	١٩,٢	٥٣٢٦٨	٦٨,١	٣٨٣٠٠	١٠٠,٠
العالم	**٧٢٦٠**	**١٠٠,٠**	**٧٨٢٠٢**	**١٠٠,٠**	**١٠٧٩٩**	

لماذا تحتكر الدول المتقدمة المبتكرات الجديدة وتطبيقاتها بينما لا يكون للدول الأخرى مثل هذه الأفضال عالميا؟ هناك اشياء كثيرة ليس من بينها التمايز فى الذكاء ولكنه تربية عقلية مفكرة ناقدة ليست حافظة لنصوص معتادة لا تتأتى سوى باطلاق حرية الفرد الفكرية بتاهيل مقومات البحث من مكتبات ومعامل وتجهيزات واشرا ف غير متزمت ولا نص غيرقابل للتبديل والتغيير. قد يمكن التعبير عن ذلك بنسبة انفاق الدولة على البحوث والتطوير من اجمالى الناتج المحلى أو القومى العام. وحسب الاحصاءات الحديثة (٢٠١٥) فقد كانت اسرائيل اعلا الدول بنسبة ٤,٢١% من اجمالى الناتج تليها اليابان ٣,٥% – فنلندا ٣,١٧ – الدانمرك ٣,٠٥ – النمسا ٢,٩٩ – المانيا ٢,٩٩ – أمريكا ٢،٨ – فرنسا ٢,٢٦ – الصين ٢,٠١ – بريطانيا ١,٧ – كندا ١,٦٢ – ايطاليا ١,٢٩ – أسبانيا ١,٢٣ – روسيا ١,٢ – اليونان ٠,٨٤ – جنوب افريقيا ٠,٧٣. ليس الرقم وحده (رغم التباسه احيانا) هو القول الفصل وانما تدريب ووعى مُعلم ومُتعلم الأمر ذو الوزن الثقيل فى موضوع البحوث العلمية ، كما يكون التساؤل عن مدى مشاركة الحكومات والمؤسسات العامة والخاصة فى

الانفاق ومدى تطبيق النتائج فى مواجهة القوى المحافظة أو المعارضة سواء كانت عامة أو من قبل هيئات أو شركات احتكارية أو وكلاء استيراد من الخارج.

■ أسئلة وتساؤلات وشعارات كثيرة تنتاب العالم معظمها يدور حول **النظام الرأسمالى** بتأويلاته الكثيرة من عالم مونتسكيو وروسو والعقد الاجتماعى (ق. ١٨) الى عالم ماركس الاشتراكى (أواخر ق. ١٩) وعالم ملتون فريدمان الرأسمالية المالية (أواخر ق. ٢٠) والهجوم على 'وال ستريت' (اوائل ق. ٢١). هل هناك مساع للتغيير، وكيف؟ الرأسمالية كانت فى بدايتها ضد الاستبدادية من اجل ديمقراطية، واليوم هى تهدد الديمقراطية بمزيد التحكم الاقتصادى ومساعى العولمة. لدينا ارتباك بين النظم ومفاهيمها واسسها واهدافها. الثورة الخضراء فى الزراعة والصناعة مخططات غامضة لمواجهات التغيير العالمى مناخا وسكانا، وتدهور العدالة بين اغنياء وفقراء ... منذ ١٩٧٥ ظهور دول مجموعة ال ٧ من أغنى الدول المتقدمة ثم فى ١٩٩٨ زادت الى مجموعة ٨ بانضمام روسيا، ثم ١٩٩٩ مجموعة ال ٢٠ تتصدرمواقف حرية التجارة ضد الحمائية ومع العولمة الخ واغلبها تعصف واقعيا باهدف الدول النامية. سقوط الأنظمة الرأسمالية مع عدم وجود وحدة مفاهيم حول ماذا بعد للمرحلة التالية لا يشكل نظاما جديدا. يتسم العالم الآن بجدل بين الأصوات العالية للكتاب والمنظرين المؤيدين مقابل الدعوة للتغيير، لكنها مرحلة تنتج فى الواقع كثير من المدخلات input وقليل من النتائج output واغلبها حلول جزئية ليست شاملة. وما زال العالم فى الانتظار.

باختصار تقول كريستين لاجارد مديرة الصندوق الدولى IMF التابع للأمم المتحدة: "التحسن فى اسواق المال لم يترجم الى تحسن فى الاقتصاد الحقيقى" !!

* * *

■ الجغرافيا وعاء منهجى له اصول وفلسفة لكن مع المتغيرات العلمية الكثيرة فى كل المجالات يحتاج الآن الى مضاعفة مدخلات سوسيولوجية اقتصادية سياسية فضلا عن التاريخية. مثلا بدون مجموعة هذه المدخلات يظل اقليم **قناة السويس** ممرعبور لخطوط ملاحية عالمية غالبا سوف تقل اهميته من درجة " مَلك" الى عضو مجلس ادارة للنقل البحرى يدخله محاور طرق جديدة عالميا خاصة بعد التغيرات المناخية التى أدت الى بداية افتتاح طريق الشمال القطبى North Polar Route المار بكل سواحل روسيا الشمالية بين غرب اوربا والشرق الأقصى فهو اقصر كثيرا من طريق السويس وهو مباشر الى اليابان والصين وكوريا وتجهيزات ملاحية وموانى خدمات جديدة من مورمانسك الى فلاديفوستوك. (طول طريق السويس ١١٤٠٠ ميل بحرى وطريق الشمال ٧٢٠٠ – أى أن طريق السويس مرة ونصف طول الشمالى).

■ والى جانب ذلك مشروع الصين لاستعادة طريق الحرير القديم من سنكيانج عبر كازاخستان وروسيا الى اوربا الوسطى بخطوط حديدية وطرق برية – هو كأنه رد برى على طريق الشمال المائى! إضافة الى ذلك مشروع صينى آخر بحرى من جنوب الصين الى افريقيا والأهم تفرعه الى فرعين الأول الى الخليج العربى ومن ثم بطرق برية حديدية من ايران لروسيا وأوربا عبر القوقاز أو من تركيا الى البلقان، والفرع الثانى الى البحر الأحمر وقناة السويس وأوربا. هذه المشروعات يمكن ان تؤهل لنفوذ سياسى اقتصادى فى وسط آسيا عبر نقل برى واسع النفوذ مقارنة بتأثير محدود للموانى البحرية فى ظهير كل منها. ويمكن النظر اليها من منظور آخر يجيب على التساؤلات المنطقية : هل هى ممهدات مرحلة هيمنة صينية على نصف العالم الشرقى فى منافسة قوية لليابان وامريكا بين آسيا واوربا؟ وما هو دور الهند فى مجال المحيط الهندى بين اوربا وافريقيا وجنوب آسيا ؟ وبالمثل ما هو دوردول الشرق الأوسط فى هذا المخطط – سوق متفاعل أم ممرعبور كما كان فى الماضى ؟ والى جانب هذه المخططات المنافسة لطرق السويس هناك منافسة قريبة يشكلها خط انابيب بترولى من ايلات الى عسقلان طاقته السنوية محدودة (٦٠ مليون طن) والطريق البرى الجيد من ايلات الى أسدود.

■ ما فى مصر من مشكلات هى مماثلة بصور اخرى لما فى دول **الشرق الأوسط العربى** ولكنها قد لا تأخذ ذات العنف الذى نجده فى العراق وسوريا ولبنان والأردن غالبا الناجمة عن وجود إثنيات مختلفة لغويا (عرب × أكراد) ومذهبيا أكثرمنه دينيا (سنة × شيعة متعددة) ومكانيا (سهول واودية مختلفة الاتساع × جبال وسلاسل جبلية تمتد فى صورة قوس جبلى يحيط بالهلال الخصيب) بينما فى مصر شىء كثير من ثقافة واحدة فوق الاختلاف الدينى. لكن فى الحالتين التيارات الفكرية متعارضة يرفدها جميعا تيار تحتى بانتماء عروبى وآخر تيار اسلامى بمؤثرات خارجية معظمها مخطط لانجاح ما يعرف بالصهيومسيحية الأمريكية مقابل كثير من خليط فكرى فى اوربا 'العجوز' كما تسميها الصهيوامريكية.

والقضية الأعقد هى حالة فلسطين/اسرائيل والمواقف المنقسمة داخل كل منها مع شيوع القضية ككل وسط مشاعر عربية عامة وإن لم تصبح بعد فاعلة. وبالمثل مشاعر معارضة داخل اسرائيل تقود الى صورة ما اقل عنفا من اجل تصالح اسرائيلى فلسطينى (غالبا فى صورة دولة واحدة متعددة الدين والاصول الاثنية) لكنها افكار غير مُنَظرة لا تقف أمام قوة التحالف الأمريكى الاسرائيلى القائم منذ منذ نصف قرن والمرتبط حاليا بالصراع المستتر بين امريكا وروسيا حول الشكل العام لكل الشرق الأوسط.

■ **الشعار الصهيونى** "ما بين النيل والفرات" لم يكن ضمن النصوص التوراتية الأولى لكنه اضيف عند كتابة التوراة بعد نحو ٥٠٠ ق.م. اصبح الشعار معبرا عن آمال اليهود كتذكرة لهم خرجهم من مصر (النيل) ومن الأسر البابلى (الفرات). لغويا هى مبهمة المعنى . فقد يعنى الشعار أى مكان وليس كل المساحة بين نهرى مصر والعراق – أى كل أو جزء من فلسطين حيث كانت مملكة يهوديا المحصورة بين البحر الميت ومدن وممالك الفينيقيين والفلسطين المطلة على البحر المتوسط. وقد يعنى مجرد دعوة للعودة بعد الأسر البابلى للشتات اليهودى المنتشر فى أرجاء بلاد حوض البحر المتوسط . لكنه لا يعنى الرغبة فى أراضى النيل أو الفرات. الخلاصة غموض الكلم غالبا صفة الشعارات المختلفة لها طاقة تحميس فى وقتها ثم تنسى لتصبح جزءا احتفاليا لمجرد الذكرى. ولكن صادف انتصار الغرب فى الحرب العالمية الأولى أن تبنت بريطانيا فكرة وطن قومى لليهود كجزء من سياسة تفتيت الشرق الأوسط بينها وفرنسا كغنيمة حرب ضد العثمانيين. دوام الحال من المحال بعد بزوغ النفوذ الأمريكى والتأييد المطلق لاسرائيل من اجل تنفيذ خططها الأساسية فى السيطرة بانواعها على الشرق الأوسط بعيدا عن بقايا بريطانيا وفرنسا وبالتالى تَحكُم قوى فى بترول الخليج العربى.

■ تتضمن **الجغرافيا السياسية** مدخلات كثيرة سريعة كتكوين دول بالانفصال والتقسيم، وتصنيف الدول بين الأحلاف الكبرى ومدى وزمن الحلف، والتركيب الاثنى واللغوى داخل دول متعددة المجتمعات والإثنيات، واختلاف المسميات فى النظم السياسية بين ملكية وجمهورية وديمقراطية وايديولوجية مهيمنة دينية، او ليبرالية اواشتراكية، وسياسة الحرب والسلام، والهيمنة العالمية لقطب او عدة اقطاب، وقياس القوة العسكرية الخ. وفى كل هذا مشكلة تصنيف الدول بين متقدمة ونامية ومتخلفة وتقسيم النامية الى دول فقيرة واخرى متوسطة على عتبة الدول المتقدمة كالصين الهند وروسيا والبرازيل والمكسيك وماليزيا وتركيا وجنوب افريقيا.

وفى الفكر السياسى الجغرافى ظهرت **الجيوليتيكا** كنظرية مميزة لشرح مسببات التوجهات السياسية لبناء ممالك دول الشرق الأوسط القديم وتوسعاتها الأرضية (مصر وآشور وبابل) والامبراطوريات الكبرى القديمة (الصينية والفارسية والرومانية والاسلامية) والامبراطوريات الاستعمارية بين القرون ١٦–١٩م، واخيرا الكتل السياسية المعاصرة. انتهت الجيوبوليتيكا الى تصنيف القوى الفاعلة على نطاق اقليمى أو عالمى الى قوى برية واخرى بحرية.

تبنت القوى البرية التوسع على حساب أراض شبه فارغة أو تسكنها مجموعات من الرعاة أو ضمت دولا مجاورة أصغر واضعف. فحيث تسهل امكانات التوسع يظل هاجسا دائما فى اضابيرها السياسية الى أن تحين الفرصة المناسبة. تكرر حدوث ذلك فى توسع الدولة العثمانية فى الشرق الأوسط والبلقان وروسيا الى سيبيريا شرقا والقوقاز جنوبا والمانيا فى ائتلاف الجرمانية فى وسط أوربا

وشرقا الى بولندا ودول البلطيق والولايات المتحدة من منشأها على ساحل الأطلنطى غربا حتى ساحل الباسيفيك. شهد التاريخ السياسى فى الماضى أكبر توسع وأسرعه عند تكوين الدولة الاسلامية التى امتدت من الحجاز الى حدود الصين شرقا والى اسبانيا غربا فى خلال نحو قرن منذ الهجرة الى المدينة ٦٢٢ م – الشام والقدس ٦٣٨ – مصر ٦٤٢ – فارس ٦٤٢– جبل طارق ٧١١– معركة تور بواتية فى فرنسا ٧٣٢ – معركة تالاس مع الصين ٧٥١). وتاريخ نمو الدولة المصرية فى العصر الحديث يمثل أيضا نموا سريعا على النطاق الاقليمى خلال فترة حكم محمد على الى نهاية حكم الخديو اسماعيل (١٨٠٥–١٨٧٩م). امتدت الى السودان ودارفور وشمال اوغندا، كما امتدت لعشر سنوات على كل بلاد الشام فترة ١٨٣٠–١٨٤٠ (حروب محمد على ضد العثمانيين). لم يكن التوسع المصرى أمرا مستغربا أو عمل مكروه لأنه كان سمة القرن١٩ فى كل أرجاء العالم. فقد تقاسمت المانيا وروسيا والنمسا بولندا على ثلاث مراحل وتقاسمت النمسا وروسيا املاك الدولة العثمانية فى البلقان بضم بعض الأراضى وتشجيع رومانيا وبلغاريا والصرب على الاستقلال وحمايتهم ضد العثمانيين. وفى ١٨٩٥ عقد مؤتمر برلين لتقسيم افريقيا كلها بين انجلترا وفرنسا والمانيا والبرتغال واسبانيا وبلجيكا. وحدث مثل هذا التسارع على اقامة المسنعمرات الأوربية فى جنوب شرق آسيا وأيضا فى الأمريكتين.

أما **القوى البحرية** فتمثلها البرتغال واسبانيا وهولاندا وبريطانيا واليابان. معظمها بلاد صغيرة أو جزر جبلية تشكل بيئة محدودة الموارد وكل ما تملكه سواحل بحرية واسطول يصبح ذراعا طويلا يبنى املاكا ومستوطنات عبر البحار تعود بالثروة الى بلادها. هذه الثروات كانت مقدمة لتكوين رؤوس اموال بدأت بها عصر الصناعة وبخاصة فى بريطانيا وهولندا. وفى العصور القديمة كان التوسع الاستيطانى عبر البحار هو نمط المدن الفينيقية (منذ ق. ٨–٧ ق.م.) والمدن الاغريقية (ق. ٦–٥ ق.م.) ومعظم هذه المستوطنات كانت فى داخل البحر المتوسط والأسود. وهناك احتمال وصول الفينيقيين الى خليج بسكاى واطراف بريطانيا. وبالمثل كان الفايكنج يقومون بالهجرة والاستيطان فى بحار الشمال الى ايسلندا وجرينلاند وربما لبرادور على ساحل كندا الشرقى فى القرون ٩–١٠ الميلادى. وبين القوى البرية والبحرية عدة دول جمعت بينهما وبالذات فرنسا فى أمريكا الشمالية وغرب افريقيا والولايات المتحدة عبر الباسيفيك الى الفلبين وعبر الكاريبى الى الاستثمار فى أمريكا اللاتينية.

■ والآن ماذا تبحث الجيوبوليتيكا (غالبا تحت عنوان جيوسياسية)؟ فى مضمونها العريض هى نظريات مدعمة بكل مقومات القوة للدولة أو الدول تحت الدراسة مع اهتمام بتركيبة الأنظمة السياسية. وفى الوقت الحاضر لم يعد فى الجيوبولتيكا – وبالذات الدراسات الجيواستراتيجية – قوى تخصصية إنما هى قوة مشتركة برية بحرية جوية صاروخية فضائية تستخدم أسلحتها للردع أكثر منها لبناء امبراطورية

وإن دخل فى هذا المجال أفكارهيمنة قطبية أحادية أو تعددية، إلا أنها لم تعد فى صورة الاستعمار السابق وانما الانضمام الى التراكيب الاقتصادية السياسية طوعا أو كرها. فى القرن الماضى كان التنظير يقترح محور قوى شمالى يمتد من موسكو الى واشنطون متضمنا برلين ولندن وباريس. الآن يرى أخرون أن هذا المحور اصبح يوازيه محور الى الجنوب أكثر اتساعا يمتد من الصين الى البرازيل متضمنا الهند وجنوب افريقيا. وفيما بين المحورين قوى اقليمية محدودة التأثير تقع احيانا تحت تأثيرقوى كبرى وبالذات فى الجوانب الاقتصادية منها جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الخليجية وامريكا الجنوبية Mercosur وجنوب شرق آسيا ASEAN.

■ من الجمل التى تستخدم بكثرة تلك المرتبطة بالعرب والعربية . العرب هم من يتكلمون العربية اى لغة "الأم" سواء كانوا فى الجزيرة العربية أو موريتانيا بغض النظر عن السلالة واللون والنسب. أما الصفة 'عربية' فهى غالبا الموروثات المكتوبة باللغة العربية أو بعض أساسيات خلقية اجتماعية وربما دينية تجعل الصفة صحيحة. وحين نقول الثقافة العربية فالمعنى ليس كل من كتب بها أو تحدث بها عربى الثقافة واللغة : الواقع أن الثقافة العربية بعد الاسلام يمكن أن تكون ثقافة عربية أو اسلامية لأن الفلاسفة والكتاب والادباء ربما كتبوا بلغاتهم الأصلية (فارسى – تركى – هندى او يونانى او قبطى) أو مباشرة بالعربية فالثقافة العربية هى تفاعل كل الثقافات المجاورة والمتداخلة مع الدولة الاسلامية ومن ثم فقد حفظتها اللغة العربية كوسيط نقل الكثيرمن التراث القديم – عربى وغير عربى – نقلها الأوربين الغربيون عن الوسيط اللغوى العربى الى اللاتينية وغيرها، وبدون هذا النقل ربما ظل كثير من الارث التاريخى مجهولا أو اسطوريا مشوشا مشوها.

وبالمثل فالثقافة الغربية الآن هى اعادة لتاريخ التنوع فى مصادر المعرفة وفى هذا المجال فإن أكثر اللغات الغربية تماثلا بالعربية كجسرعالمى هى الانجليزية التى تنقل الكثير من المعارف والعلوم عن الألمانية والفرنسية والروسية والصينية...الخ. ولكن هل تصبح الصينية وريثة الانجليزية؟

■ **الاستخدام الرقمى** فى كثير من العلوم الاجتماعية ومنها الجغرافيا هى شئ مبهر كأنه الحقيقة لا مراء فيها. لكننا نعلم أن الانسان كائن مُحير مُراوغ elusive يصعب تجميده فى مواقف محددة برغم وجود اطار عام مُلزم من القوانين والسلوكيات. لهذا فالمفروض معالجة الرقم وما يتلوه من معادلات تبنى على فرضيات متعددة لنحصل على موقف معتدل قابل للتغيير بالزمن. مثلا التعدادات السكانية فى معظم بلاد العالم فيها بدون شك هامش خطأ مصدره الراصد أو المجيب، مقصود او غير ذلك، لأسباب كثيره مثل مواقف نفسية او خوفا من فرض ضرائب جديدة، تؤثر بأقدار مختلفة على حقيقة الأرقام فى بعض المجتمعات. إضافة الى أن التعداد المنشورقد يتأثر

بافضليات سياسية للدولة. ليس المعنى تغير ارقام – وان كان جائزا فى حالات – ولكن بحجب بعض النتائج أو رفع محسوس لنسبة النمو السكانى لتبرير مشاكل كالبطالة أو التضخم والفقر كونها تفوق نسبة النمو الاقتصادى. هذا فضلا عن اختلاف ناجم عن مفهومات مغايرة. مثلا هل يشمل رقم السكان اعداد الناس يوم التعداد بغض النظر عن مواطنين ومغتربين اومواطنون من جنسيات اخرى Expatriate (expats)يعملون فترة محدودة ثم يعودون لبلادهم.

■ اوهام الرقمية كثيرة منها **نصيب الفرد** من الناتج المحلى أو الوطنى غالبا هى اساس تقسيم الدول متقدم ونامى الخ. لكن نصيب الفرد هو مقياس شكلى إستُهلك مثل الكثافة الحسابية لسكان الدولة ولم يعد صالحا كمؤشر لحالة الدولة. ولهذا يتخذ فى احيان مقياس أخر هو نصيب ٢٠ أو ١٠% شريحة عليا غنية من اجمالى الناتج المحلى مقابل ١٠-٢٠% شريحة دنيا من الفقراء ربما هو أفضل كمؤشر عام ويصبح أكثر جدوى فى الدراسة التفصيلية إذا اضيفت انصبة كل محافظة او قسم ادارى من الناتج العام لنحصل على خريطة تبين نطاقات ومناسيب الفقر والغنى على مسطح الدولة وبالتالى توضح معرفتة كم ونوع المخاطر داخل الدولة.

■ اوهام **مخططات التنمية** أو هكذا تسمى منذ نحو نصف قرن. طبيعة تكوين المخططات أنها علوية مكتبية، وفى اغلب الأحيان مسيسة داخليا من أجل مصلحة عامة أو مصالح الخاصة. المشكوك فيه أنها قليلا ما تعبر عن رأى الناس الذين يخطط لهم برغم بعض دراسات حقلية محدودة. لكن الأغلب فى مخططات التنمية ايجاد قاعدة بيانات رقمية كمبيوترية لأنها أكثر ارتباطا بنماذج ونظريات اقتصادية طبقت فى بيئات مغايرة بدول اخرى. سياسيا اعلان المخطط التنموى هدف يضاف الى حسناته سرعة التنفيذ المادى للمشروع من بنايات ادارية وسكنية وثقافية وشبكة الطرق والنقل الخ.. هذا الجانب المادى هو الجزء السهل من اى مخطط تنموى لأنه يعتمد وجود المال العام واستثمارات شركات البناء والتشييد. وهو الجزء البراق اعلاميا. الجزء الصعب هو الجانب البشرى؛ اغراء الانتقال الى المدينة او القرية المخططة مرتبط بنوع الوظائف والسكن وخدمات الحياة ومدارس الأبناء. باختصار هل المكان مؤهل أن يصبح مُكتفيا بذاته اقتصاديا وخدميا لكل طبقات المجتمع، أم هو مجرد ضاحية أو كمباوند سكنى لمدينة كبرى؟ لكل فئة من السكان متطلبات والنموذج الأكثر اعلانا – وربما الأكثر تواجدا – هو مخططات موجهة الى الصفوة القادرة على رد اموال وارباح المستثمر سواء كان خاصا او عاما. أما المجتمعات المهمشة والعشوائية فهى بالضرورة من واجبات الحكومات ولكنها مصابة بالبطأ والبيروقراطية فضلا عن بعض عيوب هندسية تكتشف بممارسة السكن بعضها قد يكشف فسادا فى عدة دوائر عامة وخاصة.

* * *

■ من بين الموضوعات المختلطة بالأحلام ربط الكنغو بالنيل. اصحاب هذا الرأى يقرأون خرائط مبسطة وأرقام صحيحة عن الحجم الكبير لتصريف الكنغو بالقياس الى النيل. لكن الكنغو نهر مركب رافده الشمالى (أو يليه بعد التقائه برافده بومو) يبعد عن منطقة التقاء بحر الجبل والسوباط والنيل الأبيض نحو ١٢٠٠ كيلومتر فى خط مستقيم فما بالنا بتعرجات كثيرة أمام عقبات التضاريس بالذات عند هضبة خط تقسيم المياه التى ترتفع نحو ٨٠٠-١٠٠٠ متر فلابد من طاقة كبيرة دائمة (غير موجودة) لرفع ضخ المياه فى انبوب أو مجرى قناة (أى حجم للآنبوب الذى يحمل ملايين الأمتار المكعبة من المياه؟) فضلا عن عشرات محطات الصيانة اللازمة لاستمرار الندفق واصلاح العيوب. قارن ذلك بحجم مياه قناة جونجلى الذى قدر بأربعة الى خمسة مليار متر^{٣}/سنة توقفت اعمال القناة نتيجة الحرب الأهلية فى السودان فذهبت التكلفة العالية هباء نتيجة مواقف سياسية. أما القناة أو الأنابيب المقترحة لنقل مياه الكنغو فسوف تمر فى منطقة السدود التى هى مقبرة للمياه الجارية (برغم أنها متوافقة ايكولوجيا مع حياة قبائل النوير والدنكا المتخاصمتين). النيل الأبيض هو الطريق المائى الوحيد لمياه أعالى النيل الاستوائية والسوباط الاثيوبى هو فى تكوينه غير قادر على تحمل مياه السوباط وبحرالجبل فتضيع اكثرها بالانتشار السطحى والبخر والامتصاص مما يدعو لتجسير كثير من مسار النهر بطول ٨٠٠ كم بين ملكال والخرطوم! أى تكلفة عالية فوق أى قدرة مالية وسياسية يمكن أن تتحملها مصر (وربما السودان بنسبة محدودة) من اجل خمسة أو عشرة مليار متر^{٣} يمكن توفيرها فى مصر باساليب كثيرة على رأسها قدرة تنفيذ القانون على المخالفين. سياسيا وفنيا لدينا مشكلات حول سد النهضة مع اثيوبيا والسودان قد يمكن حلها على زمن طويل أو قصير. وفى حالة الكنغو- النيل يجب التفاهم مع انظمة غير مستقرة فى كل من الكنغو وافريقيا الوسطى والسودانيان وكلها تهددها باستمرار قلاقل مسلحة ومجاعات. فأى مصير لمثل هذه الأفكار التى تنظر الى احاديات وليس الى موضوع متكامل!!

* * *

■ **سياسات المحافظة والحماية** والمحميات تتناول كل شىء من المحافظة على الإرث الطبيعى البيولوجى كالغابات والشواطىء المرجانية ومصادر المياه الجارية والجوفية والحيوانات المهددة بالانقراض وحماية البحار والمحيطات الى حماية الهواء من التلوث لتقليل سرعة تغير المناخ الحالية والتخلص من القمامة ومخلفات خطرة من المواد المشعة ومخلفات المستشفيات والعقاقير منتهية الصلاحية. ويدخل ايضا حماية التربة من المخصبات الكيماوية وحماية المراعى من الاستخدام الجائر الحالى – واخيرا والأكثر أهمية سياسات ضبط النسل – تسمى على استحياء تنظيم الأسرة –

هى الوسيلة الأولية لكبح جماح النمو السكانى فوق سقف الامكانات الحالية التى تتهددها استخداماتنا الجائرة للبيئة والتربة الزراعية. هل نحن قادرون على تحسين الموقف السكانى إذا لم نستطع حتى الآن حل مشكلة الزواج المبكر وختان الآناث ؟

* * *

■ وفى جوانب **الجغرافيا الاقتصادية** اشياء كثيرة باعتبار ان أى انتاج سلعى ينتابه التغيير السريع سنويا أو موسميا ومن ثم فهو الأكثرتأثرا بين المعارف الجغرافية ويشمل تنويعات كثيرة بين كافة عناصر الجغرافيا الطبيعية والبشرية معا. لهذا يتردد الناس بين مقولة ان الاقتصاد يقود السياسة ومقولة عكسها أن السياسة هى العامل الأقوى فى التشكيل الاقتصادى. كلتا المقولتان صحيحة من وجهات نظر مختلفة ولكن الأكثر صوابا هو التأكيد على التفاعل الحيوى بين السياسة والاقتصاد : واحد يسبق الآخر فى ظل ظروف مختلفة مثلا بين الحرب والسلام أو تأثير ايديولوجية ديموقراطية على تفعيل حرية تعدد الآراء وحقوق الانسان عكس انواع اخرى كالليبرالية الجديدة والأوتوقراطية.

■ لدينا فى الجغرافيا الاقتصادية مدخلين أساسين هما المدخل السلعى – أى كم انتاج السلع ومتغيراته بيئيا وبشريا ونمط استخدام الأرض واسواقه المحلية والعالمية. المدخل الثانى يأخذ نتائج المدخل الأول ويشرحها على ضوء اوضاع منتجى سلعة ما اجتماعيا وماليا لأن ذلك هو الانعكاس الطبيعى للنشاط الاقتصادى للفرد. وفى هذا المجال يمكن أن ندمج جغرافية الزراعة وجغرافية الريف معا لمزيد من التلاقى السببى والتعرف على تأثيرذلك على التركيب الاجتماعى والسكنى وتغير الأنشطة بالتأهيل البشرى لتجنب مشكلات البطالة فوق سقف الانتاج المربح فى قطاعات الزراعة والصناعة والخدمات نتيجة استخدام متزايد للتحديث والبرمجة الالكترونية.

■ لدينا فى الاقتصاد مبدأ عدالة التوزيع المناهضة للاحتكارية المتحكمة فى الانتاج والتسويق والنقل. مازالت الزراعة بالمعنى الواسع (زراعة وتربية الحيوان ومصايد الاسماك والثروة الغابية) هى المورد الغذائى للإنسان منذ عشرة آلاف سنة. نمو السكان العددى يطرح ثقلا ضاغطا من اجل زيادة الانتاج الغذائى . ولكن لدينا مشكلات عديدة تهدد التربة والقدرة الانتاجية بعضها بفعل عوامل طبيعية وبعضها الآخرى نتيجة اجهاد التربة بالزراعة الجائرة. لهذا هناك الكثير من المعامل لإجراء تجارب اكثار البذور أو مكافحة امراض النبات او تقنين دورة زراعية تشمل موسم راحة للتربة، وأى الأسمدة الممكنه لتربات ومحاصيل معينة الخ. واحد من نتائج الابحاث انتاج بذور معالجة وراثيا تتضمن قدرتها على مكافحة امراض او ابادة حشائش ضارة ومن ثم زيادة كبيرة فى المحاصيل. لكن

نقطة الضعف أن هذه المحاصيل لا تنتج بذور اكثار مما يعنى أن كل مرة يجب أن تشترى البذور من الشركة المنتجة فضلا عن ضوابط اخرى مالية. باختصار نجاح لكن فى صورة احتكارية بشعة.

■ فى تقدير حديث بلغت مبيعات الشركات الكبرى ٦٠ مليار$ منها خمس شركات احتكرت ثلثى المبيعات كالتالى: مونسانتو Monsanto (أمريكية) ٢٦% ديبونت Du Pont (امريكية) ١٨% سينجنتا Syngenta (سويسرية) ٩,٢% فيلمورين Vilmorin (فرنسية) ٤,٨% وينفيلد Winfield (أمريكية) ٣,٩ % باير Bayer (المانية) ٣,٣% وساكاتا Sakata (يابانية) ١,٦% وداوآجرو Dow Agro (امريكية) تليهم مجموعة شركات اصغر تحتل ٢٧% من سوق المبيعات العالمى. مازال الصراع محتدما بين الزراعة البيولوجية وبذور الاكثار العادية وبين البذور المعالجة وراثيا، ويبدوا أن الكثير من فلاحى الدول الفقيرة – مثلا فى جنوب شرق آسيا – قد بدأوا فى زراعة ارز البذور المعالجة حيث تعطى محصولا مضاعفا أو مرة ونصف قدر البذور العادية. وحدث هذا ايضا فى حقول الذرة فى المكسيك ولكن الآن هناك قضايا اقامها فلاحى المكسيك من اجل استعادة التنوع الطبيعى للذرة.

■ تزايد الاهتمام **بانشطة الخدمات** الرسمية والخاصة فى كافة مناحى الحياة وبخاصة فى مجالات الاتصالات وتجارة القطاعى والمولات الكبرى وسوق العقارات وصناعة مقاولات البناء والتشييد، وعالم الأموال والسياسات النقدية الخ. بحيث أصبح مجمل نشاط القطاع الخدمى يستوعب نحو نصف القوى العاملة عالميا لأنه الملاذ لاستيعاب المطرودين من قطاعات الانتاج الزراعى والصناعى نتيجة تحديث آليات الانتاج التى أدت – باختصار – الى ضرورة الاهتمام بموضوع التناقض بين نشاط تكثيف الأيدى العاملة مقابل تكثيف رأس المال، فلكل احتياجات زمنية لمعالجة مواقف حادة فى دول العالمين المتقدم والنامى.

■ فى هذه المجالات الاقتصادية السياسية معا يمكن أن نطرق الموضوع بصيغة تكاملية من مدخل دراسة التجارة الخارجية للكتل الاقليمية الكبرى : اوربا امريكا الشمالية امريكا اللاتينية افريقيا آسيا الجنوبية وآسيا الشرقية والشرق الوسط ودور الدول الكبرى المؤثرة. تقود دراسة التجارة الخارجية الى اكتشاف دور منتج معين كدليل قوة او ضعف لدولة أو اقليم ومدى تفاعل ذلك مع توجهات معينة كحرية التجارة وانشاء منظمات اقليمية ومتى يمكن رفع او خفض الحماية الجمركية الخ. كلها تحكم العلاقات الاقتصادية والسياسية معا بين العولمة والمصالح القومية أو بين الشمال المتقدم والجنوب النامى.

* * *

■ عالميا زاد **عدد السياح** من ٢٠٠ الفا فى ١٩٥٠ الى ١,٢٤ مليار سائح ٢٠١٦، منهم ٦١٥ مليونا الى اوربا واستمرار هبوط نصيب الشرق الأوسط الى ٥٤ مليون لظروفه السياسية – زيادة وسائل النقل الدولى والمحلى – اصبح مدخول السياحة عنصر ذو قدر فى اجمالى الناتج المحلى فى عدد كبير من الدول.

* * *

■ **صعيد مصر: مؤخرا** كثر الكلام عن تنمية الصعيد بعد أن كان نسيا منسيا. هو واد ضيق ١٠-٢٠ كم ويمتد كشريط اخضر كثيف العمران يتعرج نحو ٨٠٠ كم بين فياف قفار لا تقود الى شىء سوى عمران هامشى بعد بضعة مئات الكيلومترات غربا الى الواحات وشرقا الى البحر الأحمر. حدود الصعيد حادة قاطعة عكس الدلتا مروحية الشكل تتداخل تدريجيا مع الصحارى الملاصقة. لهذا كان الاختلاف بينهما: فى الصعيد حد طبيعى فاصل مع بداوة ضئيلة على الحواجر (جمع حاجر – أى الحد الحجرى بين الزراعة والصحراء) أدى الى نوع من العزلة فيما عدا نقطة الجنوب فى اسوان عند الجندل الأول التى تقود طريقا نيليا شبه آمن الى فيافى مأهولة يسكنها اسلاف سكان شمال ووسط السودان. بينما انبساط الدلتا وسط محيط شبه معمور من سيناء وفلسطين الى مطروح وليبيا سهّل حركة واندماج الناس فرادى وجماعات منذ تاريخ قديم، إضافة الى الواجهة البحرية للدلتا التى قادت الى تفاعل تجارى ثقافى معا طوال التاريخ مع سكان شرق البحر المتوسط. ربما باختصار هذه نقاط الاختلاف البيئ بينهما. لكن لدينا اختلافات اخرى: مساحيا الصعيد ٥٥% من الدلتا وسكانه ٦٧% من سكان الدلتا، ويحصل على ٦١% من مياه الرى فى الدلتا. بعبارة اخرى الصعيد اجمالا بمساحته الأصغر يتحمل كثافة سكانية اعلا، ونسبة أقل فى سكن المدن من الدلتا. لهذا فالصعيد اجمالا يرسل دائما مهاجرين الى مدن مصر الكبرى وسواحل البحر الأحمر وجنوب سيناء. هو بصورة ما يشبه ما كانت عليه النوبة قبل السد العالى ولكن بحجم أضخم مرات عديدة من النوبة.

يمكن أن نضيف عامل آخر فعال. فعلى جانبى الوادى قبائل بدوية أو نصف بدوية أو استقرت على الزراعية منذ بضع قرون. على الجانب الشرقى من الوادى تتراص مجموعات من عشائر عربية شرقية مختلفة مثل عشائرالمعازة وبلى وجهينة وبعض من قبائل سيناء يسكنون حتى الاقصر (وكوم امبو كحركة حديثة). ومن قرابة الاقصر حتى بلاد النوبه فى مصر وشمال السودان تنتشر قبائل العبابدة كان ربعهم رعاة حتى البحر الأحمر وآبار شلاتين والغالبية استقرت فى الوادى اندمج بعضهم بالكامل كقبيلة الجميلية والآخربسبيله الى ذلك فى الرمادى وكوم امبو وقنا. وعلى الحاجر الغربى للوادى انتشرت قبائل وعشائر من بدو مطروح – عبر البحيرة ووادى النطرون – الى الجيزة والفيوم وبنى سويف والمنيا كالجوابى والفوايد والفرجان والجوازى وبيوت وعشائر منها بيت لملوم وبيت الباسل. تنتمى

الهوارة الى تلك المجموعة القبلية لكنها الأقدم والأكثرامتدادا جنوبا فى قنا وجنوب سوهاج. استقرت معظم هذه القبائل ومارست الزراعة وصارت أقرب لأهل الصعيد والعلاقات جيدة بينهم الآن. ومن هنا كان تحفظ الصعايدة حتى فى الكلام العادى خوفا من الإسائة الى احد لا يعرف من أى فصيل هو وقد تكون بداية نزاع دموى ومن ثم برز الثأر كظاهرة اجتماعية تميز أهل الصعيد منذ أمد طويل يقللها انتشار التعليم بين الاناث باعتبارهن الأكثر محافظة على نمط الحياة الصعيدية ومن ثم كُن من أهم محركى ثقافة الثأر.

■ الصعيد ليس كله متشابه بل يمكن اجمالا تقسيمه الى الصعيد الشمالى أو مصر الوسطى شمالا من جنوب الجيزة وبنى سويف والفيوم والمنيا مقابل الصعيد الجنوبى الذى يضم اسيوط وسوهاج وقنا والأقصر. أما أسوان فهى منطقة مشتركة بين الخليط الصعيدى الأساسى والعبابدة والجعافرة والنوبيين (كنوز وفديجة) وقليل من البشارية. الأراضى الزراعية اوسع فى الصعيد الشمالى بالتحام وادى بحر يوسف فى المنيا وبنى سويف والفيوم بينما تعانى اسيوط والاقصر واسوان من ضيق المساحة الزراعية عكس سوهاج وقنا نسبيا. لهذا فإن جنوب الصعيد هو اكبر مصدر للهجرة الداخلية فى مصر. مصادر الثروة السياحية تقلل من عوز الجنوب لكنها تتذبذب كما هو شأن صناعة السياحة، اضافة الى تركز صناعة سكر القصب. أما شمال الصعيد فانتاجه الزراعى الواسع مشابه للدلتا : قمح وقطن وارز ونباتات عطرية الخ.

■ يستحسن أن تكون اشكال التنمية البشرية المطلوبة للتأهيل الحديث مرتبطة بالتنوع السكانى سابق الذكر فضلا عن الاتجاه الى محاصيل صناعية agro-industry مع اقامة مراكز صناعة حديثة خارج الزمام الزراعى مع تدعيم انتاج الكهرباء من مصادرها المتجددة على القناطر المجددة وتفعيل الطاقة الشمسية (مشروع بنبان فى كوم أمبو) والرياح حسب دراسات متأنية. ومؤخرا كثر كلام ذو بريق عن مثلث صناعى بين قنا وقفط والقصير نرجو عدم المبالغة بوصفه مثلث ذهبى حتى لا تحبط الآمال حين نفتقد "الذهبى" عند التنفيذ.

* * *

هل تصلح بهذه الصورة أن تشكل دولة – أم هل هى مقدمات دولة واحدة متعددة الأعراق؟

اتجاهات التجارة الدولية بين الكتل الاقتصادية والقارات (٢٠٠٨)

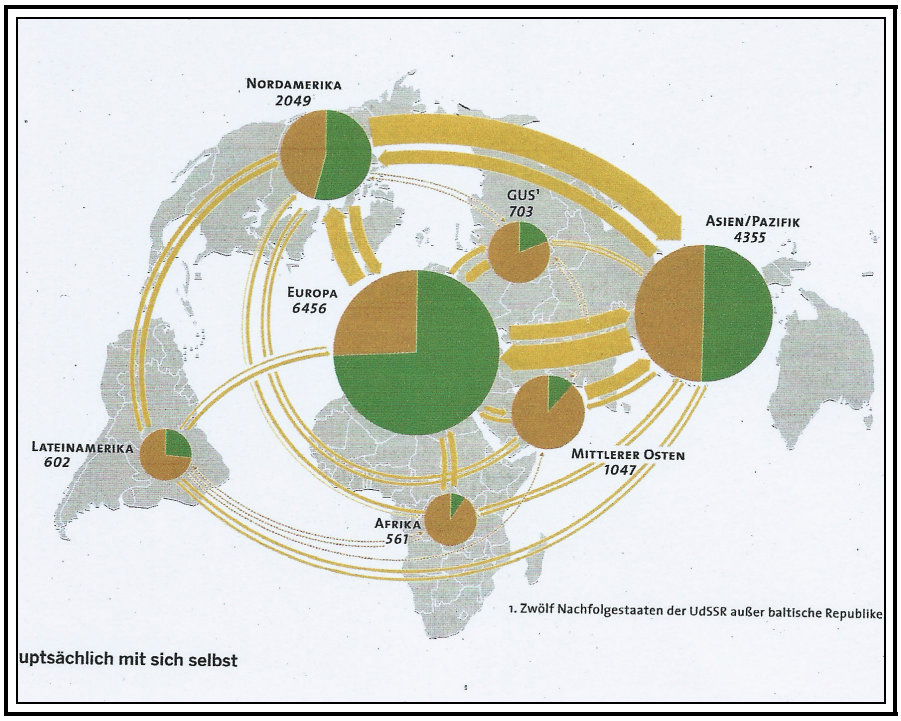

Le Monde diplomatique, Atlas der Globaalisierung,Tas Verlag, GmbH, Berlin 2009

- اللون الأخضر يساوى حجم تجارة داخل المنطقة
- اللون البنى يساوى حجم التجارة الخارجية للتكلات الاقتصادية
- حجم الأسهم يوضح حجم التجارة المتبادلة بمليارات الدولارات بين ٧٠٠ مليار $ والأسهم الرفيعة تساوى قيم صادرات اقل من ٢٥ مليار $
- الأرقام بجوار الدوائر تساوى قيمة الصادرات بمليارات الدولارت.

ملاحظات :

١- نحو ¾ الانتاج السلعى فى الاتحاد الأوربى يدخل تجارة صادر/وارد فيما بين دول الاتحاد.

٢- نحو نصف الانتاج السلعى فى شرق وجنوب آسيا يدخل التجارة الدولية بحجم كبير ومثل ذلك كتلة امريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا).

٣- يقتصر اسهام الشرق الأوسط وافريقيا وامريكا اللاتينية على حجم استيراد اضعاف مضاعفة لصادراته من الخامات المعدنية والنباتية ومصادر الطاقة.

الخلاصة هى احتكارية الشمال على الجنوب فبرغم انتهاء الاستعمار الخشن تحولنا الى الاستعمار الناعم المسمى "عولمة !!!

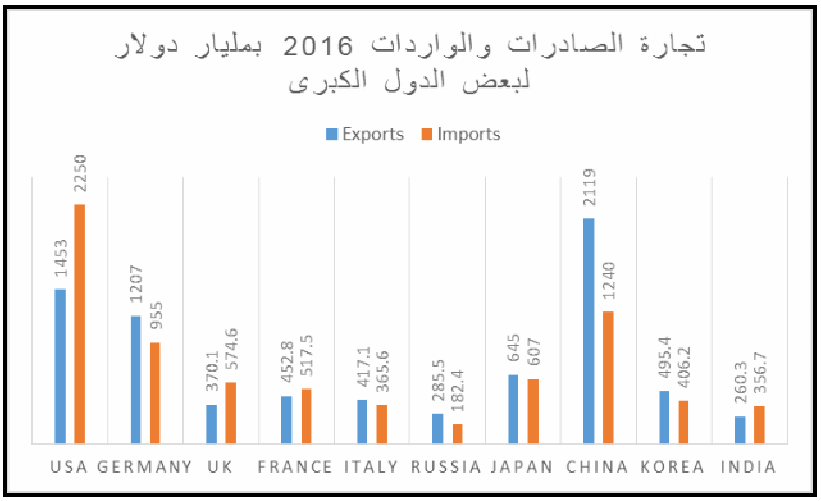

مشروعات طرق بديلة أو منافسة لطريق السويس

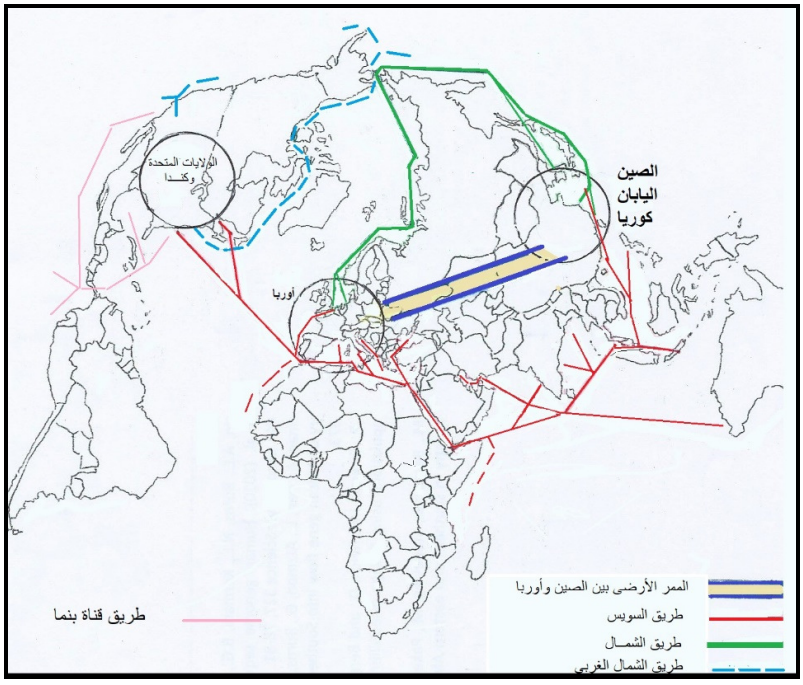

التغير المناخى وارتفاع سطح البحر وشمال الدلتا

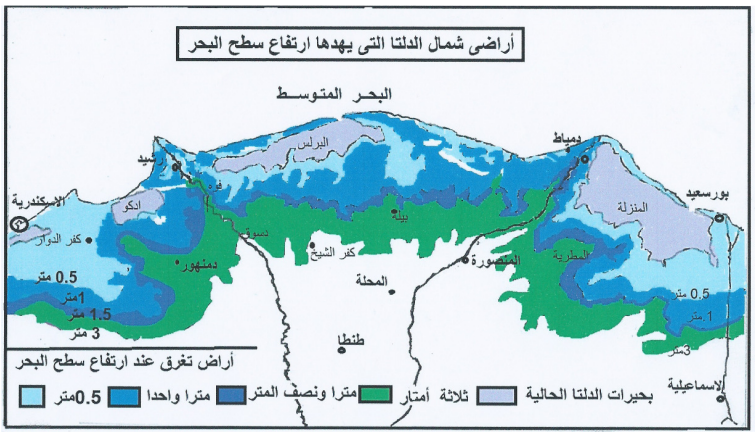

ماذا نفعل ؟ ***

هل هو وهم استقراء مستقبلى أم متغير يجب مواجهته قدر الإمكان بتخطيط علمى مرحلى لنقل ملايين السكان المضارين مع تدبير احتياجاتهم الحياتية ؟ هل نبدأ الآن أم ننتظر الكوارث وبخاصة فى اقليم بورسعيد حيث الأمل معقود على التنمية الصناعية بشكل مكثف؟؟

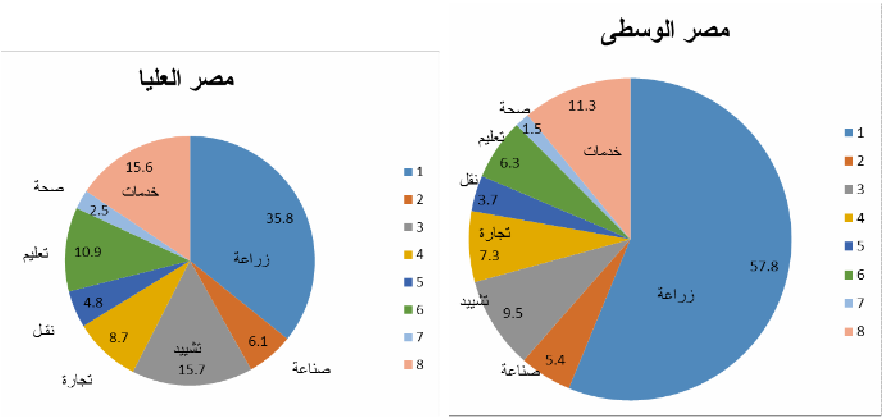

الفروق الكبرى بين الصعيدين : ارتفاع التشاط الزراعى فى الشمال عن الجنوب – ارتفاع نشاط البناء والتشييد فى الجنوب – ارتفاع وظائف التعليم فى الجنوب – ضآلة النشاط الصناعى فيهما.

ما هو مخطط التنمية لكل منهما وبوجه خاص التنمية البشرية ؟؟

جيوبوليتكا العالم فى القرن العشرين
عالم المحاور ومراكز القوى

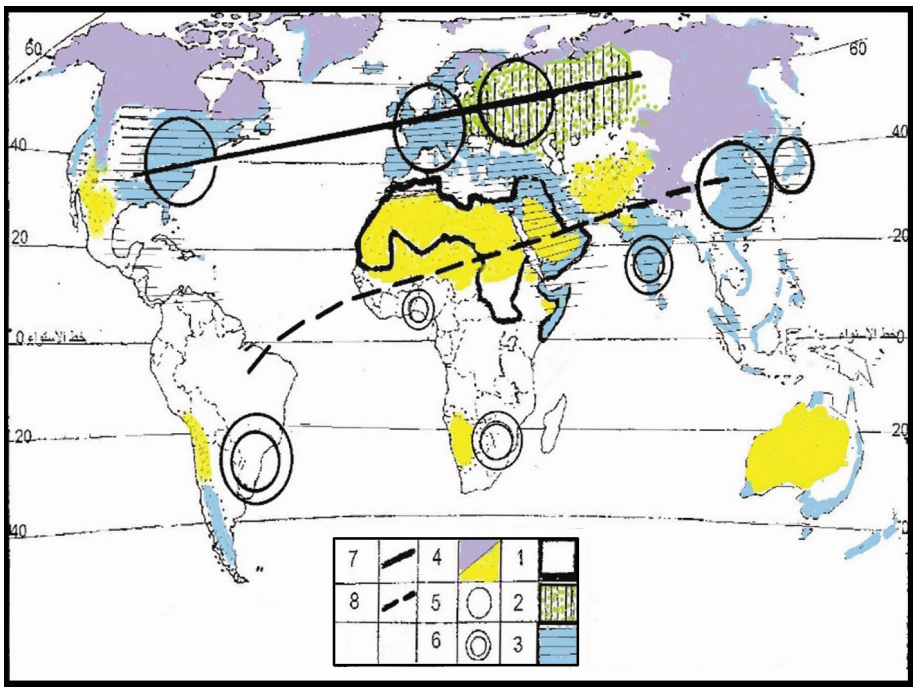

(١) العالم العربى.

(٢) ماكيندر وقلب العالم Mackinder 1943

(٣) سبيكمان وأراضى الإطار البحرى Spykman, N., 1944

(٤) قفار وصحارى حارة وجليدية (العباءة الخالية) Mackinder 1943

(٥) مراكز القوة العالمية.

(٦) مراكز قوة مستقبلية فى الجنوب.

(٧) محور القوة العالمى (السيسيبى–الينسى) Mackinder 1943

(٨) محور القوة الجنوبى المستقبلى (بلاتينى Belltini, 1982)

محاور بلاتينى عن:

J. Soppelsa "Des Tensions Et Des Armes" Publications Sorbonne, Paris 1984, pp. 10-13.